Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموجة الحادية والعشرون

أجيال أجيال أجيال

المعركة ضد الإنكليزية

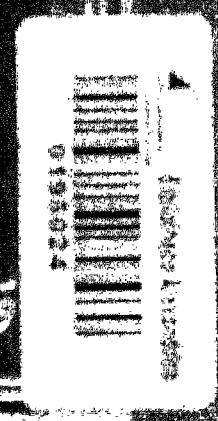

قراءة الصين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الثالث من المؤلفات

جبران خليل جبران

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

المعربة عن الإنكليزية

تقديم

د. جميل جبر

دار الجيل
بيروت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديـــم

في قصيدة جبران المنثورة «بين الخرائب» يظهر سليمان بصفته حكيماً وملكاً قديراً في نظر الناس، ومحباً عظيماً وشاعرَ حُبٍّ، ويعترف بأنَّه كان على ضلال في سعيه وراء القوة والمجد، فإن الزمن لاشى قوته وكاد يقضي على شهرته لو لم يكن عظيماً في حبه ينشد له الأناشيد، فهو الآن يدرك الحقيقة العظمى التالية: «الأبدية لا تحفظ إلا المحبة لأنها مثلها».

وكان جبران في هذه القصيدة يتكلَّم عن نفسه من حيث إنه لم يكن عظيماً إلا لأنه ينشد للحبِّ، بعد أن أناره الحبُّ، فبقي خالداً في نفوس قرائه لأن المحبة كانت وراء كتاباته ورسومه ونجاحه في كتاب «النبي» فحفظتها الأبدية لأن المحبة خالدة مثلها.

وفي آخر كتاب «دمعة وابتسامة» مقال عنوانه «صوت الشاعر» يختمه جبران بالعبارة التالية:

«والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة».

لقد صدق جبران؛ فمنذ ذلك الحين والمطابع ودور النشر تطبع وتصدر وتوزِّع كتب جبران، وقراؤه يزدادون ويزدادون في البلاد العربية وغيرها من بلاد العالم. فبلغات كثيرة تُطبع كتبه وتُقرأ، وأرقام مذهلة تصلنا عن انتشار كتابه «النبي» الذي يشكل جوهرة العقد من مجموعته الإنكليزية المعرَّبة.

لقد أراد جبران في مجموعته الإنكليزية أن يقول كلمته التي كان يشعر بأنها ستكون من أجمل بنات أفكاره، وكانت هذه الكلمة هي «النبي» كما نفهم من كتاب نعيمه عن جبران. وأراد أن يقولها بالإنكليزية بعد تشجيع ملاكه الحارس ونقصد به ماري هاسكل التي كان لها أعظم تأثير إيجابي في حياته،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وربما توجه إلى الإنكليزية لأنه شعر آنذاك بأنه يملك الجدارة لفعل ذلك، وأن العالم الذي يتكلم الإنكليزية هو أوسع من العالم الذي يتكلم العربية وأغنى.

الكتب التي ألفها بالإنكليزية وضمتها المجموعة المعروفة بالمجموعة الإنكليزية هي كما يلي مرتبة بحسب تاريخ صدورها:

المجنون	١٩١٨	يسوع ابن الإنسان	١٩٢٨
السابق	١٩٢٠	آلهة الأرض	١٩٣١
النبي	١٩٢٣	التائه	١٩٣٢
رمل وزبد	١٩٢٦	حديقة النبي	١٩٣٣

في «المجنون» تتبدّى اتجاهات تتميّز بحدة في التفكير وبإيجاز في التعبير وباستخدام للرمزية؛ كما يتميز بالسخرية البالغة.

وفي «رمل وزبد» يتجلى استخدام جبران للمثل في ذاته استخداماً واسعاً للغاية مختصراً به الفكرة اختصاراً شديداً، إذ وضع كتاب رمل وزبد برمته في هذا الشكل.

أما كتاب «النبي» وهو رائعة جبران، فالاعتقاد بالله ـ الذات الكبرى ـ أساس حكمة النبي وجوهرها، وهو ترنيمة تمجّد الإنسان والحياة، وفيه ذلك النثر المنمّق غاية التنميق وفيه ما فيه من خصائص الشعر كالرؤيا والإيقاع والصورة ورقة شعور لا نلقاها إلا عند الرومنطيقيين وفي الأسفار الشعرية في التوراة، كما أن نبي جبران يدعى المصطفى وهو لقب من ألقاب النبي محمد.

وفي «يسوع ابن الإنسان» يعبر جبران عن عقيدته المغايرة للعقيدة المسيحية في النظرة إلى المسيح، فالمسيح ليس إلهاً تجسَّد إنساناً، بل هو إنسان بكل معنى الكلمة لكنه بلغ أعلى مراتب الإنسانية سمواً روحيًّا...

أما كتابه «آلهة الأرض» فهو كما وصف جبران كتابته بأنها «صادرة من جحيم الشاعر» وفيه تظهر العبثية واللعب بمصائر البشر، ونقطة منيرة واحدة في اللوحة السوداء هي الحب الخالد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي كتابه «التائه» تبرز شدّة الظلام والسخرية المرّة عندما يمتلئ القلب البشري باليأس والتشاؤم.

أما كتابه الأخير «حديقة النبي» فقد أراد جبران أن يتحدّث فيه عن علاقة الإنسان بالطبيعة بعد أن تحدَّث في «النبي» عن علاقة الإنسان بالإنسان، ولكن الموت لم يفسح له في المجال فجاءَت بربارة يونغ لتضيف إلى الصفحات المعدودة التي كتبها جبران من أجل هذا الكتاب، صفحات وفصولاً سبق أن كتبها جبران في أوقات متباينة منها «الويلات التسع» وقد كتبت قبل الحرب العالمية الأولى؛ وهذا الكتاب هو كلمة الوداع التي يختتم بها جبران حياته.

وبكلمة واحدة إن مجموعة جبران الإنكليزية لا غنى عنها للقارئ العربي فهي في الأهمية تفوق المجموعة العربية في رأي النقاد الذين يعتبرون كتاب «النبي» الذروة بين تآليف جبران. فكتاب «النبي» فيها أصبح كتاباً شعبياً ـ إذا صح التعبير ـ في الوسط الأميركي، ومنذ سنة ١٩٥٧ بيعت منه النسخة المليون ولقد ترجم إلى لغات عديدة.

وغنيّ عن البيان أن جبران الشاعر والأديب هو جبران الفنان الرسام ذو الخيال المحلّق والعين النفّاذة البصيرة التي تلتقط أسرار الأضواء والظلال. فإذا كان جبران قد جعل من الكتابة فنًّا تصويريًّا بالكلمة ليؤدي دوراً وظيفيًّا لا زخرفيًّا فحسب، فإن كتبه لا تؤدي الغرض منها كاملاً إلا إذا دعّمت بالصور التي رسمها جبران من أجل هذه الكتب بالذات.

ولما كانت طبعات مؤلفات جبران تخلو كليًّا أو جزئيًّا، من صور اللوحات التي رسمها والتي تعبّر تعبيراً إيحائياً عن فكره وسموه وتراقيه؛ ولما كان جبران الرسام، في نظر الكثير الكثير من النقاد يفضَّل على جبران الكاتب؛ فقد جئنا بهذه الطبعة لمجموعة جبران المعرّبة عن الإنكليزية، وقد أرفقناها ببعض الصور التي رسمها جبران، وهي تكمّل كتاباته وتتابع إيحاءاتها بشكل مستمر كلما وقعت عليها العين. وبذلك تصبح هذه المجموعة الأنيقة الطباعة كنزاً أدبياً وفنياً ثميناً يحرص محبُّو الأدب والفن على اقتنائه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإن دار الجيل لترجو أن تكون دائماً عند حسن ظن القارئ المتذوّق، وفي المستوى الذي تحلم به الأجيال الناشئة.

والله وليّ التوفيق، وعليه الاتكال أولاً وأخيراً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجنون

تعريب

الارشمندريت انطونيوس شبير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيف صرت مجنوناً؟

هذه قصتي إلى كل من يودّ أن يعرف كيف صرت مجنوناً: في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سُرقت ـ البراقع السبعة التي حكتُها وتقنعْتُ بها في حيواتي السبع على الأرض. ـ فركضت سافر الوجه في الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس: «اللصوص! اللصوص! اللصوص الملاعين!» فضحك الرجال والنساء مني وهرب بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين.

وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتًى قد انتصب على أحد السطوح وصرخ قائلا: «إنّ هذا الرجل مجنون أيها الناس!» وما رفعت نظري لأراه حتى قبّلت الشمس وجهي العاري لأول مرة. لأول مرة قبلت الشمس وجهي العاري فالتهبت نفسي بمحبة الشمس ولم أعد بحاجة إلى براقعي. وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلاً: «مباركون مباركون أولئك اللصوص الذين سرقوا براقعي!».

هكذا صرت مجنوناً، ولكني قد وجدت بجنوني هذا، الحرية والنجاة معاً: حرية الانفراد، والنجاة من أن يدرك الناس كياني، لأن الذي يدركون كياننا إنماً يستعبدون بعض ما فينا.

ولكن لا أفخرنّ كثيراً بنجاتي، فإن اللص وإن كان في غيابة السجن فهوِ في مأمن من أقرانه اللصوص!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله

عندما ارتعشت شفتاي بالنطق لأول مرة صعدت إلى الجبل المقدس وناديت الله قائلاً: إنني عبدك يا ربي، مشيئتك الخفية شريعتي، وسأظلّ خاضعاً لك سحابة الحياة».

فلم يجبني الله بل مرّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري.

وبعد ألف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس وخاطبت الله قائلاً: «أنا جبلة يديك يا خالقي، من تراب الأرض صنعتني وبنفخة من روحك العلوية أحييتني. فأنا مدين لك بكليتي».

فلم يجبني الله، وكألف من الأجنحة الخاطفة اجتاز بي عابراً.

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس أيضاً وناجيت الله ثالثة قائلاً: «يا ابتاه القدوس، أنا ابنك الحبيب. بالرأفة والمحبة ولدتني وبالمحبة والعبادة سأرث ملكوتك».

فلم يجبني الله في هذه المرة أيضاً. وكالضباب الذي يغشى قصيّ التلال توارى عن عيني.

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس وخاطبت الله رابعة قائلاً: «يا الهي العظيم الحكيم العليم، يا كمالي ومحجتي، أنا أمسك وأنت غدي. أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس».

فعطف الله إذ ذاك عليّ وانحنى فوقي وهمس في أذني كلمات تذوب رقة وحلاوة، وكما يطوي البحر جدولاً منحدراً إليه طواني الله في أعماقه.

وعندما انحدرت إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ياصاحبي

يا صاحبي: إنني لست على ما يبدو لك منيّ، فما مظاهري سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط التساهل والحسنى، ألتفّ به ليدرأ عني تطفلك ويقيك من إهمالي وتغافلي. وأما ذاتي الخفية الكبرى التى أدعوها أنا فسرّ غامض مكنون في أعماق سكون نفسي ولا يدركه أحد سواي، وهنالك سيبقى أبداً غامضاً مستتراً.

يا صاحبي: إنني أود أن لا تصدق ما اقول وأن لا تثق بما أفعل، لأنّ اقوالي ليست سوى صدى لأفكارك، وأفعالي ليست سوى أشباح آمالك..

يا صاحبي: عندما تقول لي: «الريح تهبّ شرقاً» أجيبك على الفور قائلاً: «نعم إنها تهبّ شرقاً» لأنني لا أريد أن يخطر لك أن أفكاري السابحة مع أمواج البحر لا تستطيع أن تحلق طائرة على متون الرياح. أما أنت فقد مزقت الأرياح نسيج أفكارك القديمة البالية فبتّ قاصراً عن إدراك أفكاري العميقة المرفرفة فوق البحار. وحسنٌ أنّك لم تدرك كنهها لأنني أريد أن أمشي على البحر وحدي.

ياصاحبي: عندما تبزغ شمس نهارك تدنو ظلمة ليلي، ومع ذلك فإني أحدّثك من وراء ستائر ظلمتي عن أشعة الشمس الذهبية التي ترقص عند الظهيرة على قنن الجبال وعما تحدثه في رقصها من الظلال الظليلة المنسابة إلى الأودية والحقول ـ أحدثك عن كل ذلك لأنّك لا تستطيع أن تسمع أناشيد ظلمتي ولا أن ترى خفقان جناحيّ بين الكواكب والنجوم. وما أحلى أنّك لا تسمع ولا ترى ذلك لأني أوثر أن أسامر الليل وحدي.

يا صاحبي: عندما تصعد إلى سمائك أهبط إلى جحيمي. ومع أنّه تفصلني عنك هوّةٌ لا يستطاع عبورها تظلّ تناديني قائلاً: «يا رفيقي، يا صاحبي»، فأجيبك: «يا رفيقي، يا صاحبي»، لأنّني لا أريد أن ترى جحيمي، فإن لهيبه يحرق باصرتيك ودخانه يسدّ منخريك. أما أنا فإنني أضنّ بجحيمي أن يزوره من كان على شاكلتك، لأنني أفضل أن أكون في جحيمي وحدي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يا صاحبي: أنت تقول إنّك تعشق الحقّ والفضيلة والجمال، وأنا أقول مقتدياً بك إنّه يليق بالإنسان أن يعشق مثل هذه المناقب، غير أنني أضحك من محبتك في قلبي ساتراً ضحكي عنك، لأنّني أريد أن أضحك وحدي.

يا صاحبي: إنّك رجل فاضل متيقظ حكيم، بل إنّك رجل كامل. ولذلك فإنّي ضناً بكرامتك أخاطبك بحكمة وتيقّظ ـ ولكنني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه أنت إلى عالم غريب بعيد، وإنني أستر عنك جنوني لأنّي أود أن أكون مجنوناً وحدي.

أنت لست بصاحبي، يا صاحِ! ولكن كيف السبيل لأقناعك فتفقه وتفهم؟ إن طريقي غير طريقك ولكننا نمشي معاً جنباً إلى جنب.

اللعين

قلت مرة للعيّن[1]: «ألم تسأم نفسك الإقامة في هذا الحقل وحيداً منفرداً؟»

فأجابني قائلاً: إنّ لي في التخويف لذةً لا يسبر غورها، ولذا فإني راضٍ عن عملي ولا أملّه».

ففكرت هنيهة ثم قلت له: «بالصواب أجبت، فإنّه قد سبق لي فخبرت هذه اللذة بنفسي.».

فأجابني قائلاً: «إنّك واهم يا هذا، فإن هذه اللذة لا يعرف طعمها إلا من كان محشوّاً بالقشّ مثلي.».

فتركته إذ ذاك وانصرفت وأنا لا أدري هل مدحني أم تنقّصني.

وانقضى عام صار اللعين في أثنائه فيلسوفاً علاّمةً. وعندما مررت به ثانية رأيت غرابين يبنيان عشّاً تحت قبّعته.

---

(١) هو الشاخص الذي ينصب في هيئة الرجل بين الزرع لطرد الوحوش.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين هجعة ويقظة

كان في المدينة حيثما ولدت امرأة وابنة، وكانت لهما عادة أن تمشيا وهما نائمتان.

فحدث في إحدى ليالي الصيف الهادئة الجميلة أن نهضت الأم وابنتها من نومهما على جاري عادتهما ومشتا ـ وهما نائمتان ـ في حديقتهما المبرقعة بالضباب.

وفيما هما ماشيتان قالت الأم لابنتها: «تباً لكِ من عدوٍ شرير! أنت التي هدمت شبابي وبنت حياتها على أنقاض حياتي! آه لو أستطيع أن أقتلك!».

فأجابت الابنة وقالت: «أيتها المرأة الممقوتة والحيزبون الأنانية الرثة القائمة بيني وبين ذاتي الطليقة، يا مَن تودّ أن تكون حياتي صدى لحياتها الرثة البالية! ألا ليتك تهلكين!».

وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان.

فقالت الأم بلطف: «أذاك أنت يا حمامتي؟»

فأجابت الابنة بحلاوة: «نعم أنا ابنتك يا حنونتي!».

الناسكان

عاش ناسكان في قنة جبل عالٍ، وكانا دائبين في عبادة الله وحبهما الواحد للآخر.

وكان لهذين الناسكين قصعة من الخزف لم يكن لهما غيرها مقتنى.

ففي أحد الأيام وسوس الخناس في قلب الناسك الكهل فجاء إلى رفيقه الشاب وقال له: «لقد مضى على حياتنا معاً زمن طويل وقد آن لنا أن نفترق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولذا فإني أريد أن نقسم مقتنياتنا.»

فاكتأب الناسك الشاب وأجابه قائلاً: «إن انفصالك عني يجرح قلبي وحقك يا أخي. ولكن إن كان ثمة من ضرورة لذهابك فلتكن مشيئتك.».

ثم تناول القصعة الخزفية بيده وقال له: «إن هذه القصعة هي كل ما نقتني أيها الأخ العزيز، ولما كانت قسمتها بيننا مستحيلة فأرى أن تكون لك وحدك.»

فأجابه الناسك الكهل وهو يتميز غيظاً قائلاً: «إنني لا أطلب منك صدقة ولا أقبل متاعاً ليس لي، ولذا يجب أن تقسم القصعة فينال كل منا نصيبه منها.».

فقال له الشاب برقة: إذا قسمنا القصعة فأية منفعة ترجى من قسمتها سواء لك أم لي؟ دعنا إن حسن لديك نقترع عليها.»

فأجابه الكهل وقال: «إنني لا أريد سوى حصتي كما تقضي العدالة بيننا. ولن أرضى البتة عن القرعة العمياء التي تحطّ من قدر العدالة وتجعلني مقامراً أعرض العدالة وحصتي لصدفة عمياء. ولذاأطلب قسمة القصعة.»

فلم يبق إذ ذاك مجال للشاب أن يبحث معه في الموضوع، فقال له: «إذا كانت هذه حقيقة رغبتك أيها الأخ الحبيب ووددت أن يكون الأمر على ما وصفت فلتقسم القصعة.»

فاسودّ وجه الناسك الكهل وصرخ به قائلاً: «تباً لك، ما أجبنك وما أقعدك عن الخصام أيها الخامل البليد!».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكلب الحكيم

مرّ كلب حكيم ذات يوم بجماعة من السنانير، ولما دنا منهم رآهم منصرفين عنه ولم يعبأوا بقدومه.. فوقف يتأملهم مستغرباً أمرهم.

وفيما هو يتطلع إليهم نهض من بين الجماعة سنور بادن تبدو على وجهه أمائر الهيبة والوقار، فنظر إلى رفقائه وقال لهم: «صلوا أيها الإخوة المؤمنون، فإني الحق أقول لكم إنكم إذا صليتم وكررتم صلاتكم بحرارة يستجاب تضرعكم وتمطركم السماء فئراناً في الحال.»

فلمّا سمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة ضحك منهم في قلبه وارتدّ عنهم وهو يردّد لنفسه قوله: «ما أغبى السنانير وما أعمى بصائرهم عن إدراك ما في الكتب! أليس مكتوباً، بل ألم أقرأ أنا، وأجدادي من قبل أخبروني أن ما تمطره السماء إجابة للصلوات والتضرعات والابتهالات ليس فئراناً بل عظام!».

اطلبوا تجدوا

كان في قديم الزمان إنسانٌ وكان له ملء وادٍ من الإبر.

ففي أحد الأيام جاءت إليه أم يسوع وقالت له: «يا صاحب، إن رداء ابني مشقوق وأريد أن أرتقه له قبل أن يذهب إلى الهيكل، أفلا تقرضني إبرة؟».

فلم يعطها إبرةً، غير أنّه أعطاها عظة بالغة كانت عنده، موضوعها «اطلبوا تجدوا»، لكي تأخذها إلى ابنها قبل أن يذهب إلى الهيكل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذوات السبع

في سكون الليل العميق وقد بدأ النعاس يغالبني جلست ذواتي السبع يتحادثن.

فقالت الذات الأولى: «لقد مرّت الأيام والأعوام على وجودي في هذا المجنون وليس لي ما أفعله سوى تجديد آلامه نهاراً وأحزانه ليلاً. وقد كرهت نفسي القيام بهذه الوظيفة المملة، فلأثورنّ عليه.»

فأجابتها الذات الثانية قائلة: «إنّك أوفر مني حظاً يا أختاه. فقد قدّر لي أن أكون شريكة لهذا المجنون في أفراحه وملذاته فأضحك لضحكه وأترنم في ساعات سروره، وبأقدام مثلثة الأجنحة أرقص لأفكاره البراقة، فإن تكن ثورة، فمن أحقّ بها مني؟».

فقالت الذات الثالثة: «أواه أيتها الرفيقتان إن عملي أدعى إلى الثورة من عمليكما. فأنا الذات المريضة حباً المتلهبة شوقاً الهائمة حنيناً! ألا إن الثورة على هذا المجنون من شأني وأنا ذات الشقاء والأسى.»

فقالت الرابعة: «إنني أكثر منكن شقاء أيتها الرفيقات. فقد قدّر لي أن أثير كوامن البغض وأوقظ نيران الكره والحقد في قلب هذا المجنون. فأنا، الذات الثائرة الهوجاء المولودة في كهوف الجحيم السوداء، أحق منكن بالثورة على مهمتي.»

وقالت الذات الخامسة: «إنني أغبطكن جميعاً أيتها الأخوات بما قدر لكن من العمل السعيد، فقد آثر الدهر أن أجدد أحلام هذا المجنون التي لا تنتهي، وأهيج جوعه وعطشه اللذين لا يسكنان، هائمة به على وجهي في فضاء اللانهاية من غير أن أتذوق طعم الراحة، ناشدة ما لم يُعرف قطّ وما لم يُخلق بعد. فأنا ـ أنا أولى منكنّ بالثورة والعصيان.»

فقال الذات السادسة: «ما أسعدكنّ أيتها الأخوات وما أتعسني وأشقاني! فأنا الذات المشتغلة العاملة الحقيرة التي بيديها الدائبتين وعينيها الساهرتين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترسم من أيامها صوراً وتمنح العناصر الدنيئة العديمة الشكل أشكالاً جميلة خالدة ـ ألا إنه أجدر بي أنا الذات المعتزلة الهادئة أن أنقم وأثور».

فتطلعت الذات السابعة في كل منهن وقالت: «أف منكن جميعاً! ما أغرب ثورتكن على هذا الرجل المسكين بحجة أن لكل منكن عملاً محموداً. حبذا لو أسعدتني الأيام بعمل محدود كأعمالكن. فأنا ذات بطّالة لا عمل لها، اجلس أبداً بين اللانهايتين ـ الصمت والظلام ـ في حين أن كل واحدة منكن دائبة في تجديد الحياة على تنوع مظاهرها. بربكن قلن لي أيتها الشقيقات من منا أحقّ بالثورة، أنتن أم أنا؟»

ولما فرغت الذات السابعة من كلامها نظرت إليها الذوات الستّ بشفقة وحنان ولم يجرن جواباً.

وجنّ الليل فرقدن وفي طيات صدورهنّ استسلام جديد وخضوع سعيد كل لما قسم لها من الواجب المحدود!.

أما الذات السابعة فظلت شاخصة تراقب اللاشيء الذي وراء كل شيء.

العدالة!

وكان عرس في قصر الأمير في إحدى الليالي، وكان المدعوون يدخلون ويخرجون. فدخل رجل مع الداخلين وحيّا الأمير باحترام ووقار. فنظر إليه الجميع بدهشة لأن إحدى عينيه كانت مفقوءة والدم ينزف من نقرتها الفارغة.

فسأله الأمير قائلاً: «ما دهاك يا صاح؟» فأجابه الرجل قائلاً: «أنا لص أيها الأمير، وقد اغتنمت فرصة في ظلمة هذه الليلة على جاري عادتي وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة. وفيما أنا أتسلق الجدار لأدخل دكان الصيرفي ضللت سبيلي ودخلت من نافذة جاره الحائك. فعدوت طالباً الهرب وأنا لا أبصر شيئاً لشدة الظلام، فلطم نول الحائك عيني وفقأها. ولذلك قد أتيتك الآن ملتمساً أن تنصفني من الحائك.».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأرسل الأمير واستدعى الحائك. فأحضر الحائك في الحال، فأمر الأمير أن تقلع عينه.

فقال له الحائك: «بالصواب حكمت أيها الأمير، فإن العدالة تقضي بقلع عيني، ولكنه غير خاف على سموك أنني أحتاج في حرفتي إلى عينين لكي أرى حاشيتي الشقة التي أنسجها. غير أن لي جاراً إسكافاً له عينان مثلي ولكنه لا يحتاج في مهنته إلا إلى عين واحدة. فاستدعه إن أردت واقلع إحدى عينيه للمحافظة على الشريعة.»

فأرسل الأمير في الحال، واستدعى الإسكاف، فحضر واقتلعت عينه وهكذا تأيّدت العدالة!

الثعلب

خرج الثعلب من مأواه عند شروق الشمس، فتطلع إلى ظله منذهلاً وقال: «سأتغدّى اليوم جملاً.» ثم مضى في سبيله يفتش عن الجمال الصباح كله. وعند الظهيرة تفرس في ظله ثانية وقال مندهشاً: «بلى، إن فأرة واحدة تكفيني.».

الملك الحكيم

كان في إحدى المدن النائية ملك جبار حكيم، وكان مخوفاً لجبروته محبوباً لحكمته.

وكان في وسط تلك المدنية بئر ماء نقي عذب، يشرب منها جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون لأنه لم يكن في المدينة بئر سواها.

وفيما الناس نيام في إحدى الليالي جاءت ساحرة إلى المدينة خلسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وألقت في البئر سبع نقط من سائل غريب وقالت: «كلّ من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً.»

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر وجنّوا على نحو ما قالت الساحرة. ولكنّ الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء.

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حي إلى حي ومن زقاق إلى زقاق وهم يتسارّون قائلين: «قد جنّ ملكنا ووزيره. إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما. إننا نأبى أن يملك علينا ملك مجنونٌ. هيا بنا نخلعه عن عرشه!».

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر. فملأوه في الحال وأحضروه إليه. فأخذه المليك بيده وأداره إلى فمه، وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره فأتى الوزير على ثمالته.

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما.

الطموح

جلس ثلاثة رجال إلى خوان في حانة. وكان الأول حائكاً والثاني نجاراً والثالث حفار قبور.

فقال الحائك لرفيقيه: «قد بعت اليوم كفناً بديعاً من الكتان بدينارين. فلنشرب ما طاب لنا من الخمر.

فأجابه النجار وقال: «أما أنا فقد بعت أثمن نعش عندي. فلنأكل أفخر اللحوم مع الخمر.»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال لهما حفار القبور: «إنني لم أحفر اليوم سوى قبر واحد. أيها الصديقان، ولكن الذي استأجرني دفع لي الأجر مضاعفاً. فلنستحلِ بقليل من العسل.»

فحفلت الخمارة بهم في تلك الليلة لأنهم طلبوا الخمر واللحم والعسل مراراً وكانوا يرقصون طرباً.

أما صاحب الحانة فكان يتلفت بين آونة وأخرى إلى زوجته متبسماً وهو يكاد لا يصدق ما يراه بعينيه، لأن ضيوفه الثلاثة كانوا ينفقون المال من غير حساب.

وظل الأصحاب في الحانة إلى ساعة متأخرة من الليل يأكلون ويشربون. وبعد أن امتلأوا من كل شيء انصرفوا وهم يغنون ويضجّون.

وكان صاحب الحانة وزوجته واقفين بباب حانتهما يشيعان ضيوفهما بأنظارهما.

فقالت المرأة لزوجها: حبذا لو يسعدنا الحظّ في كل يوم بمثل هؤلاء الزبائن الكرماء الشرفاء، فإننا نتمكن وقتئذ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة ونستطيع تعليمه ليصير في المستقبل قسيساً.

اللذة الجديدة

اخترعت في ليلتي الماضية لذة جديدة.

وبينما كنت أتمتع بها لأول مرة رأيت ملاكاً وشيطاناً قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان على تعريف لذتي.

فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلاً: «إنها خطيئة مميتة.».

فيعترضه الثاني قائلاً بصوت أشدّ من صوته: «لا، لعمري إنها فضيلة.»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللغة الأخرى

حدث أنّه بعد ميلادي بثلاثة أيام كنت متكئاً في مهدي الحريري أتفرس بلهفة غريبة في العالم الجديد حواليّ.

فقالت أمي للمرضع: «كيف حال ولدي اليوم؟» فأجابتها قائلة: «هو بخير يا سيدتي، فقد أطعمته ثلاث مرات، ولم أر قط قبله طفلاً بشوشاً مثله.»

فما سمعت ذلك حتى ثار ثائر غضبي وصرخت قائلاً: «لا تصدقي، لا تصدقي ذلك يا أماه، فإن فراشي خشن الملمس، والحليب الذي رضعته مرّ المذاق، ورائحة الثدي كريهة في أنفي، فيا شدّ ما بي من تعاسة!».

فلم تفهم أمي لغتي وكذلك المرضع لم تفقه ما قلته لأنني خاطبتهما بلغة لعالم الذي أتيت منه.

وفي اليوم الحادي والعشرين لولادتي، وهو اليوم الذي تعمدت فيه، قال الكاهن لأمي: «إنني أهنئك يا سيدتي لأن ابنك ولد مسيحياً».

فقلت للكاهن مندهشاً: «إذا كان الأمر كما تقول فأحرِ بأمك التي في السماء أن تكون تعسة بك لأنك لم تولد بعد مسيحياً.»

فلم يفهم الكاهن ما قلته له بلغتي.

وبعد سبعة أقمار جاءنا عرّاف فتفرس في وجهي مليّاً وقال لأمّي: «إن ابنك هذا سيكون زعيماً داهية وسيتبعه الناس طائعين.»

فصرختُ بأعلى صوتي قائلاً: «تلك نبوءة كاذبة، فأنا أدرى بنفسي وأعلم يقيناً أنّني سأدرس الموسيقى والغناء ولن أكون إلاّ موسيقياً.»

ولشدّ ما دهشت إذ لم يفهم أحدٌ لغتي مع أنني كنت قد بلغت ذلك الحد من عمري.

ولقد مرّ على ذلك ثلاثٌ وثلاثون سنة وقد ماتت أمي والمرضع والكاهن (ظلل الله أرواحهم برحمته). أما العراف فلا يزال حياً يرزق. وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأيته في الأمس أمام الهيكل فحدثته وحدثني وأطلعته على انخراطي في سلك أبناء الموسيقى فقال لي: «قد طالما وثقت بأنّك ستكون موسيقياً كبيراً، ولقد سبقت في أيام طفولتك فأنبأت أمك بمستقبلك هذا.»

فصدقت قوله لأني أنا نفسي نسيت لغة العالم الذي أتيت منه.

الرمانة

عشت مرّة في قلب رمانة، وبينما أنا جالس يوماً في خليتي سمعت حبة تقول: «سأصير في المستقبل شجرة متعالية تترنم الأرياح بأغصانها وترقص الشمس على أوراقها، وسأكون قويةً جميلة على ممر الفصول.»

فأجابت حبة ثانية وقالت: «ما أجهلك أيتها الرفيقة! فإني حين كنت صغيرة مثلك حلمت أحلامك. ولكنني بعد أن صرت قادرة على تحديد كل شيء بمقياس ومعيار أدركت أنّ جميع آمالي كانت باطلة».

ثم قالت حبّة ثالثة: «أما أنا فإنني لا أرى فينا ما ينبئ بمثل هذا المستقبل العظيم.»

فأجابت حبّة رابعة وقالت: «إذا لم ترمِ حياتنا إلى مستقبل أنبل وأبهى فباطلة هي.»

فوقفت إذا ذاك حبة خامسة وقالت: «ما بالنا نتجادل فيما سيؤول إليه أمرنا في المستقبل في حين أننا لا نعرف ما نحن عليه اليوم؟»

فقال حبة سادسة: «إنّنا سنظل أبداً على ما نحن عليه الآن.»

فأجابتها حبة سابعة قائلة: «إن في ذهني صورة واضحة للمستقبل ولكنني لا أستطيع أن أرسمها بالألفاظ.»

ثم تكلمت حبة ثامنة وتاسعة وعاشرة وحبوب كثيرة حتى تكلم الجميع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلم أفهم شيئاً لوفرة الأصوات وبلبلتها.

فتركت الرمانة في ذلك اليوم وأتيت فسكنت في سفرجلة حيث لا يوجد إلا قليل من الحبوب تعيش بصمت وسكون.

القفصان

كان في حديقة أبي قفصان.

وكان في أحدهما أسد أحضره عبيد أبي من براري نينوى، وفي الثاني زرزور غريد لا يملّ الإنشاد.

كان الزرزور يأتي في كل فجر إلى الأسد فيحييه قائلاً له: «عم صباحاً يا أخي السجين!»

النملات الثلاث

اجتمع ثلاث نملات على أنف رجل كان نائماً في الشمس، فحيت كلّ منهنّ الأخرى بتحية قبيلتها. ثم وقفن هنالك يتحدثن.

فقالت النملة الأولى: «إن هذه التلال والسهول التي نحن عليها اليوم هي أقفر جهة وطئتها في حياتي على الأرض، فقد طفت النهار بطوله أفتش عن حبة من أي نوع كان فلم أظفر بشيء.».

فأجابت النملة الثانية وقالت: «قد طالما سمعت أبناء قبيلتي يتحدثون عن مكان يطلقون عليه اسم الأرض الملساء الجرداء وما أكثر ما لهم في دورانها وحركتها من الآراء! وإنّه ليلوح لي أنّنا نسير اليوم عليها لأنّني جلت في جميع منعرجاتها وعطفاتها وخبرت بنفسي حقيقتها.»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرفعت النملة الثالثة رأسها وقالت: «أيتها الصديقتان، نحن الان واقفون على أنف النملة العظمى ـ النملة الجبارة اللامتناهية، التي تعاظم جسمها حتى عجزت عن رؤيته عيوننا، واتسع ظلها حتى قصرت عن استقصائه مقاييسنا. وارتفع صوتها حتى كلّت عن سماعه آذاننا. هذه هي النملة الأزلية المالئة الأرجاء بلا نهايتها.»

وعندما فرغت النملة الثالثة من كلامها نظرت كل من رفيقتيها إلى الأخرى وضحكتا من حديثها.

وفي تلك اللحظة تحرّك الرجل في رقدته فرفع يده وحك أنفه فانسحقت النملات الثلاث تحت أصابعه.

حفار القبور

بينما كنت يوماً أدفن ذاتاً من ذواتي الميتة إذ وقف بي حفار القبور.

وقال لي:

«أنت هو الرجل الفرد الذي وقع بقلبي دون جميع الذين يأتون إلى هذه المقبرة.»

فقلت له: «لقد سرني قولك يا صاح، ولكن لماذا وقعت بقلبك دون سواي من الناس؟»

فأجابني قائلاً: «إن سواك يأتي باكياً ويعود باكياً، أما أنت فإنك تجيء ضاحكاً وترجع ضاحكاً».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على درجات الهيكل

رأيت في مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل.

وكان جالساً معها رجلان واحد عن يمينها والآخر عن يسارها ينظران إليها.

وقد لاحظت متعجباً أن وجنتها اليمنى كانت شاحبة وأن وجنتها اليسرى كانت مورّدة.

المدينة المباركة

خُبّرت في حداثتي عن مدينة كان جميع الناس يعيشون فيها وفق تعاليم الكتاب، فقلت لنفسي: «لأسعَ إلى تلك المدينة سعياً فأحظى بما فيها من البركة العليا».

وكانت المدينة بعيدة فأعددت للسفر كامل العدّة. وبعد مسير أربعين يوماً أشرفت عليها. وفي اليوم التالي دخلت إليها فإذا كل سكانها أعور أقطع. فأخذتني الحيرة وقلت لنفسي: «وهل على كل من يعيش في هذه المدينة المقدسة أن يكون أعور أقطع!».

ثم لحظت أن القوم كانوا ينظرون إليّ بدهشة أعظم من دهشتي، لأنّهم هم أيضاً كانوا متعجبين من عينيّ ويديّ.

وفيما هم يتحدّثون سألتهم قائلاً: «هل هذه هي المدينة المقدسة حيث يعيش كل إنسان وفق تعاليم الكتاب؟».

فقالوا: «نعم هذه هي المدينة».

فقلت لهم: «وماذا حلّ بكم؟ أين عيونكم اليمنى وأيديكم اليمنى؟» فرثى الشعب لحالتي وأشفقوا على جهالتي وقالوا: «تعال وانظر».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم قادني واحد من متقدميهم إلى داخل الهيكل القائم في وسط المدينة.

وعندما دخلت الهيكل رأيت في الصدر رابية من العيون والأيدي الذابلة، فقلت لهم، والدهش آخذ منّي كل مأخذ: «بربكم قولوا لي أيّ غازٍ سفّاح أغار عليكم فحكم بقطع أيديكم وقلع عيونكم؟»

فأنَّ الجميع بمرارة متعجبين من جهلي ودنا منّي أحد شيوخهم وقال لي: «يا ابني. إنما نحن الذين فعلنا ذلك بأنفسنا لأن الله سلطنا على الشر الذي كان حالاً بنا فاستأصلنا جرثومته». ثم قادني إلى مذبح عالٍ وجميع الشعب يتبعنا، وهناك أشار بإصبعه إلى آية محفورة فوق المذبح وطلب إليّ أن أقرأها فقرأت:

«إذا كانت عينك اليمنى تشكّكك فاقلعها وألقها عنك، فخير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنم. وإذا شكّكتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك، لأنّه خير لك ان يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنم».

فأدركتُ إذ ذاك سرّهم والتفت إليهم صارخاً: «أليس بينكم رجل أو امرأة بعينين أو يدين؟».

فأجابوا قائلين: «كلا، ليس بيننا أحدٌ سوى الصغار الذين لم يبلغوا بعد رشدهم ليقرأوا الكتاب ويعملوا بوصاياه».

وعندما خرجنا من الهيكل أسرعت فغادرت تلك المدينة المباركة، لأنّني كنت بالغاً رشدي وقادراً على قراءة الكتاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإله الصالح والإله الشرير

اجتمع الإله الصالح مرة بالإله الشرّير على قنّة جبل. فقال الإله الصالح للشرير: «عِمْ صباحاً يا أخي!».

فلم ينبس الإله الشرّير ببنت شفة. فقال له الإله الصالح: «يلوح لي أيها الزميل أن مزاجك متعكّرٌ اليوم».

فأجاب الإله الشرير قائلاً: «نعم، أنا مستاء جداً لأن القوم في هذه المدّة الأخيرة صاروا لا يميزون بيني وبينك، وكثيراً ما أسمعهم ينادونني باسمك ولا أكره على نفسي منك ومن اسمك!».

فقال له الإله الصالح: «إن هذا هو ما يحدث لي أيضاً في كل يوم أيها العزيز، فإن كثيرين من الناس ينادونني باسمك ويحسبونني إياك».

فمضى الإله الشرير في سبيله وهو يحرق الأرّم في قلبه لاعناً حماقة الإنسان وجهله.

في خيبتي غلبتي

يا خيبتي، يا خيبة! يا وحدتي وانفرادي! إنّك لأعز لدّي من ألف انتصار، وأحلى على قلبي من كل أمجاد الأقطار.

يا خيبتي، يا خيبة!.

يا معرفتي لنفسي واحتقاري لذاتي، بكِ أعرف أنّني لا أزال فتيًّا سريع الخطى، فلا تغريني أكاليل الغار الذابلة الفانية. بكِ قد حظيت بوحدتي وانفرادي وتذوّقتُ لذة فراري واحتقاري.

يا خيبتي، يا خيبة!.

يا سيفي البتار وترسي البرّاق. قد قرأت في عينيكِ:
أن الإنسان متى جلس على عرش الملك فقد صار عبدا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومتى أدرك الناس أعماق روحه فقد طوي كتاب حياته.
ومتى بلغ أوجَ كماله فقد قضى نحبه.

بل هو كالثمرة إذا نضجت سقطت واندثرت.

يا خيبتي، يا خيبة!.

يا رفيقي الباسل الودود، أنتِ وحدكِ تسمعين إنشادي وصراخي وسكوتي، وليس غيرك بمحدثي عن خفقان الأجنحة وهدير البحار، وعن قذائف البراكين الثائرة في دوامس الليالي.
أنتِ وحدكِ تتسلّقين صخور نفسي الجلمودية الشامخة.
يا خيبتي، يا خيبة! يا شجاعتي التي لا تموت!

أنتِ تضحكين معي في العاصفة، وتحفرين معي قبوراً لما يموت مني ومنك، وتقفين معي أمام وجه الشمس بجلدٍ وثباتٍ، فنكون معاً هائلين رأعبين.

الليل والمجنون

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل قاتمٌ عارٍ، أمشي على طريق ناريّ يمتدّ فوق أحلام نهاري. وحيثما تمسّ رجلي الأرض، فهناك تنبثق سنديانة جبارة».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنّك ما زلت تتلفّت إلى ورائك لترى آثار قدميك على الرمال».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل صامت وعميق، وفي قلب وحدتي تتكئ إلاهة تتمخض بمولود عُلوي تأتلف بكيانه الجنّة والجحيم».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنّك لا تزال ترتعش أمام الآلام فيهولك سماع أناشيد الهاوية».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، آبِدٌ جبّار، فإنّ أذنيّ مثقلتان بنحيب الأمم المستعبدة والتحسّر على الممالك المهجورة».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأنّك لاتزال تتخذ ذاتك الصغرى رفيقاً وفيًّا، ولا تستطيع أن تتّخذ لك من ذاتك الجبّارة صديقاً».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل صارمٌ وفظيع، فإن قلبي لا يطرب إلاّ لرؤية لهيب المراكب المحترقة في البحار، وشفتيّ لا تستلذّان سوى دماء الأبطال المصروعين في ساحات الوغى.

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأن بك شوقاً إلى أخت روحك متسلطاً عليك يُسيّرك كيف شاء. ولم تصرْ بعدُ شريعةً لنفسك».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، جذلٌ وطروب، فإن الرجل الذي يرافقني سكران أبداً من الخمرة العذراء، والمرأة التي تصادقني ترتكب الإثم وهي منشرحة الصدر».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأن روحك مقنّعة بقناع ذي طيات سبع وأنت للآن لم تحمل قلبك على كفّك».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، صبور وكئيب. فإن في صدري ألوفاً من قبور المحبين الذين ماتوا مخلصين فحنّطتهم الدموع وكفّنتهم القبلات الذابلة».

الليل: «وهل أنت مثلي؟ أحقاً أنت مثلي أيها المجنون؟ وهل تستطيع أن تمتطي العاصفة جواداً وتمتشق البرق حُساماً؟».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل. أنا مثلك قدير عظيم. وقد بنيتُ عرشي على آكام الآلهة الساقطة وجعلت الأيام تمر أمامي صاغرة تقبّل أهداب ثوبي من غير أن تجرؤ على التطلّع إلى وجهي».

ـ الليل: « هل أنت مثلي يا ابن قلبي الدامس المدلهم؟ هل أنت مثلي؟ وهل تخطر لك أفكاري الجامحة أم تتكلم لغتي الواسعة البيان؟».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجنون: «بلى، إنّنا أخوان توأمان أيها الليل، فأنت تكشف مكنونات اللانهاية، وأنا أكشف مكنونات نفسي».

الوجوه

رأيت وجهاً يظهر بألف مظهر. ووجهاً مظهره واحد أبداً كأنما قد سبك في قالب.

ورأيت وجهاً قدرت أن أقرأ تحت طلاوته الظاهرة بشاعته المستترة، ووجهاً ما رأيت روعة جماله المحتجب حتى رفعت قناعه الظاهر.

ورأيت وجهاً شيخاً قد تجعد ولكن على لا شيء، ووجهاً ناعماً قد ارتسمت على ملامحه جميع الأشياء.

أنا أعرف الوجوه لأنّني أنظر إليها من خلال ما ينسجه بصري فأرى الحقيقة التي وراءها بباصرتي.

البحر الأعظم

ذهبتُ ونفسي إلى البحر العظيم لنستحم بمائه، وعندما وصلنا إلى الساحل طفنا نبحث عن مكان مستور عن الأنظار.

وفيما نحن نمشي رأينا رجلاً جالساً على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه حفنات من الملح ويرمي بها إلى البحر.

فقالت لي نفسي: هو ذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلها. فلنترك هذا المكان لأننا لا نستطيع أن نستحم أمامه.».

فتركنا ذلك المكان وسرنا إلى أن بلغنا جوناً في الشاطئ، فإذا برجل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر يتناول منها قطعاً من السكر ويرمي بها إلى البحر.

فقالت لي نفسي: «هو ذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بِشر فيه. فيجب أن لا يرى جسدينا العاريين.»

فتابعنا مسيرنا إلى أن بلغنا إلى شاطئ قريب فرأينا رجلاً يلتقط أسماكاً ميتة ويعيدها إلى الماء بعطفٍ وحنان.

فقالت لي نفسي: «هو ذا الإنساني الشفيق الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور، فلنبتعد عنه.»

فعبرنا به وسرنا إلى موضع آخر فرأينا رجلاً يخطط ظله على المياه فتحيُ الأمواج وتمحو خطوطه، ثم يعود فيخططه مرة بعد مرة.

فقالت لي نفسي: «هذا هو المتصوف الذي يقيم من أوهامه صنماً يعبده. فلنتركه.»

فخلّفناه وراءنا إلى جونٍ صغير في مكان آخر فرأينا رجلاً يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في كأس من العقيق.

فقالت لي نفسي: «هوذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العناكب رداء يلبسه، وهو لا يستحق أن يرى جسدينا العاريين.»

ثم سرنا قليلاً فسمعنا بغتةً صوتاً يقول: «هذا هو البحر! هذا هو البحر العميق! هذا هو البحر الواسع الجبار!» فسعينا إلى حيث خرج الصوت، فإذا برجل قد ولّى ظهره شطر البحر ووضع على أذنيه صدفةً كالقرن وقعد يصغي إلى ما تُرجعه من الصدى.

فقالت لي نفسي: سر بنا، فهذا هو الدهري الذي ينصرف عن الكليات التي تتجاوز فهمه إلى الجزئيات التافهة التي لا طائل تحتها.».

فخلفناه وراءنا وانطلقنا إلى موضع آخر. فإذا برجل منحنٍ بين الصخور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد غمر رأسه بالرمل، فقلت لنفسي: «هلمي يا نفس لنستحم ههنا لأن هذا الرجل لا يستطيع أن يبصرنا.».

فهزّت نفسي رأسها وقالت: كلا وألف كلا! فإن هذا الذي تراه هو شر خلق الله. هو الرافضي الخبيث الذي يحجب نفسه عن مأساة الحياة فتحجب الحياة أفراحها عن قلبه.»

فبدت إذ ذاك على وجه نفسي أمارات الحزن والأسى، وبصوت تقطعه المرارة قالت: «هلم بنا ننصرف من هذه الشواطئ لأنّه ليس فيها مكان خفي آمن نستحم فيه. فلن أرضى أن تعبث هذه الريح بشعري الذهبي، ولا أن يكشف هذا الهواء عن صدري الناصع، ولا أن يظهر هذا النور عُريي المقدس».

حينئذٍ تركنا ذلك البحر ناشدين البحر الأعظم.

المصلوب

صرخت بالناس قائلاً: «أودّ لو تصلبونني». فقالوا: «ولماذا يكون دمك على رؤوسنا؟» فقلت لهم: «وكيف تفاخرون بأنفسكم إن لم تصلبوا المجانين؟».

فقبلوا قولي وصلبوني. وهدّأ الصلب ثورة نفسي. وعندما كنت معلّقاً بين الأرض والسماء رفعوا رؤوسهم وحدّقوا إلي وهم يتمايلون عجباً لأن رؤوسهم لم ترتفع قبلُ إلى ما فوق أقدامهم.

وفيما هم مجتمعون حول الصليب رفع واحدٌ منهم صوته وقال لي: «عن أيّ ذنب تكفّر يا هذا؟».

ثم قال آخر: «بربّك قل لنا ما الذي دعاك إلى التضحية بنفسك؟».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتلاه ثالث فسألني قائلاً: «أوتظنّ أيها الجاهل أنّك تشتري مجد العالم بهذا الثمن البخس الذي تقدمه؟».

ثم قال رابع: «تأملوا ابتسامته الخرساء كأن لم يحل به شيء! وهل في استطاعة بشري أن يبتسم لمثل هذا الألم؟».

فالتفتُّ إليهم إذ ذاك وقلت لهم: «اذكروا ابتسامتي هذه ولا تذكروا شيئاً غيرها. فأنا لا أكفّر عن ذنب ولا أسعى إلى تضحية ولا أرغب في مجد وليس لي ما أصفح عنه. ولكنني قد عطشت فسألتكم دمي شراباً. وهل من شراب يبرد غلة المجنون سوى دمه؟ أجل! وكنت أبكم فسألتكم الجراح أفواهاً. وكنت سجيناً في ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمست سبيلاً يؤدي بي إلى أيام أبهى من أيامكم وليالٍ أسعد من لياليكم.

«وها أنا ذا ماض الآن إلى حيث مضى كثيرون ممن صُلبوا قبلي. ولكن لا يخطر لكم أنّنا معاشر المصلوبين نعبأ بصلبكم، لأنّنا قُدر لنا أن نُصلب من قِبَل جبابرة أشدّ منكم قدرةً وبطشاً بين الأرضين الدنيا والسماوات العليا».

الفلكي

رأيت وصديقاً لي أعمى جالساً في ظلال الهيكل وحده، فقال لي صديقي: «هوذا أحكم رجل في قومنا».

فتركت إذ ذاك صديقي ودنوت من الأعمى فحييته وقعدت بجانبه أجاذبه أطراف الحديث. وبعد هنيهة سألته قائلا: «منذ كم أنت أعمى يا سيدي؟».

فأجابني وقال: «منذ ولادتي يا بني».

فقلت له: «وأي مذهب من مذاهب الحكمة تتّبع؟»

فأجاب قائلاً: «أنا فلكيّ منجّم».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم وضع يده على صدره وزاد قائلاً: «إنّني أرصد هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه النجوم».

الحنين الأعظم

ها أنا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة.

محبةٌ أعمق من أعماق أختي وأقوى من قوة أخي وأغرب من غرائب جنوني.

وكم هنالك من دهور تقضّت قبل أن بدّد الفجر الأول دياجير الظلمة عنا فرأى أحدنا أخاه.

قد شاهدنا ولادة كثير من العوالم واكتمالها وانحلالها بيد أنّنا بعدُ أحداث توّاقون.

أجل، نحن أحداث توّاقون ولكننا وحيدون مهملون.

نتكئ متعانقين عناقاً أبديّاً ولكننا غير مستريحين. وهل من راحة لشوق مستعبَد وشهوة لا تنفد؟

أين إله النار المتلهّب فيدفئ مضجع أختي؟

بل أين إلاهة الغيث الفياضة فتخمد براكين أخي؟

وأنا أشقى الاثنين. من أين لي المرأة التي تتسلّط على قلبي؟

في سكينة الليل تردّد أختي في أحلامها اسم إله النار المجهول لتدفئتها.

وينادي أخي إلاهة الغيث القصيّة لتبريد غلّته. أما أنا فمن ترى أنادي في غفلتي؟

لست والله أدري! لست والله أدري!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ها أنا ذا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر،
ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا،
تربطنا محبة عميقة قوية غريبة.

وريقة عشب وورقة خريف

قالت وريقة عشب لورقة خريف: «إنك تُحدثين بسقوطك جلبة فتبعثرين أحلام شتائي».

فأجابتها الورقة مغتاظة: «أيتها الدنيئة أصلاً وفصلاً الفظّة المعقودة اللسان، من أين لك الأحلام وأنت ملتصقة بقذارات الغبراء بعيدة عن موسيقى الفضاء لا تميزين بين الغناء والمواء؟».

قالت ورقة الخريف ذلك وهبطت على الأرض فنامت.
وعندما جاء الربيع أفاقت من نومها فإذا بها وريقة عشب.

ثم أقبل الخريف ووافتها هجعة الشتاء فنثر الهواء حواليها أوراق الأشجار الذابلة فتململت في ذاتها قائلة: «أف من أوراق الخريف الثقيلة! إنها تحدث بسقوطها جلبة وضجيجاً فتبعثر أحلام شتائي».

العيـــن

قالت العين يوماً لرفيقاتها الحواس: «إنّني أرى وراء هذه الأودية جبلاً مبرقعاً بالغيوم فما أجمله جبلاً!»

فأصغت الأذن هنيهة لحديثها ثم قالت لها: «أين ذلك الجبل الذي تنظرين؟ إنني لا أسمع صوته».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم قالت اليد: «أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه. فليس هنالك جبل البتة».

وقال لها الأنف: «إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يوجد الجبل وأنا لا أقدر أن أشمّه. ألا إن وجوده لمستحيل».

فتحولت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها. أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال. وبعد البحث الدقيق قررن بإجماع الآراء: «إن العين قد خرجت ولا شك عن صوابها».

العالمان

كان في مدينة أفكار القديمة عالمان. وكان كلّ منهما يمقت معرفة الآخر ويحتقرها. وكان الأول كافراً والثاني مؤمناً.

وحدث أنهما اجتمعا مرّة في ساحة المدينة وطفقا يتجادلان ويتحاجان أمام أنصارهما في وجود الآلهة أو عدم وجودها. وبعد أن حمي وطيس الجدال بينهما بضع ساعات مضى كلّ منهما في سبيله.

وفي ذلك المساء بعينه ذهب الكافر إلى الهيكل وجثا على ركبتيه أمام المذبح مستغفراً الآلهة عن جموح ماضيه وصار مؤمناً.

وفي الساعة نفسها أخذ المؤمن كتبه المقدسة فحرقها في ساحة المدينة وصار زنديقاً كافراً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما ولدت كآبتي

عندما ولدت كآبتي أرضعتها حليب العناية وسهرت عليها بعين الحبّ والحنان.

فنمت كآبتي كما ينمو كلّ حيّ ـ قوية جميلة تفيض بهجة وإشراقاً.

فأحببت كآبتي وأحبتني كآبتي، وأحببنا معاً العالم المحيط بنا، لأن كآبتي كانت رقيقة القلب عطوفاً فصيّرت قلبي رقيقاً عطوفاً.

وعندما كنّا نتحادث معاً، أنا وكآبتي، كنا نتخذ الأحلام أجنحةً لأيامنا ومناطق لليالينا، لأن كآبتي كانت فصيحة طليقة اللسان فصيرت لساني فصيحاً طليقاً.

وعندما كنّا نغني معاً، أنا وكآبتي، كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مصغين إلى غنائنا، لأن غناءنا كان عميقاً كأعماق البحر وغريباً كغرائب الذكرى.

وعندما كنا نمشي، أنا وكآبتي، كان الناس يرنون إلينا بعيون تشعّ حبّاً وإعجاباً متحدّثين بنا بأرقّ الألفاظ وأحلاها، غير أن بعضاً منهم كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد، لأن الكآبة كانت منقبة محمودة وأنا كنت متباهياً فخوراً بالكآبة.

ثم ماتت كآبتي كما يموت كلّ حيّ وبقيت أنا وحدي مفكّراً متأملاً.

وها أنا ذا أتكلم الآن فتستثقل أذناي صوتي، وأنشد فلا يصغي أحدٌ من جيراني لإنشادي، وأطوف في الشوارع فلا يعبأ أحدٌ بي، غير أنني أتعزّى إذ أسمع في منامي أصواتاً تقول متحسرة:

«انظروا! انظروا! فهنا يرقد الرجل الذي ماتت كآبته».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما ولدت مسرتي

وعندما ولدت مسرّتي حملتها على ذراعي وصعدت بها إلى سطح بيتي أنادي قائلاً: «تعالوا يا جيراني ومعارفي، تعالوا وانظروا! فقد ولدت مسرّتي اليوم. تعالوا وانظروا فيض مسرتي الضاحكة أمام الشمس».

وشدّ ما كان دهشي لأنّه لم يأت أحدٌ من جيراني ليرى مسرتي.

وظللت سبعة أشهر أعلن مسرّتي للناس بكرة وأصيلاً من على سطح بيتي ولكن لم يُصغِ أحد قط لصوتي. فبقيت ومسرّتي وحيدين مهملين لا يعبأ أحد بنا.

وما مرّ على ذلك سنة حتى سئمت مسرّتي حياتها فامتقع لونها واعتلّت إذ لم ينبض بحبّها قلب سوى قلبي، ولم يقبّل فمها سوى فمي.

فقضت مسرتي في وحشتها وأمسيت لا أذكرها إلا عندما أذكر كآبتي.

وما الذّكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش في الهواء هنيهة حتى تكفّن بالتراب دهراً.

العالم الكامل

يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة استمعني. أيها القدَرُ الرحيم الساهر على نفوسنا التائهة المجنونة اصغ إليّ: فإنّي وأنا ناقص أعيش بين الكاملين من البشر. أنا، أنا البشرية المشوشة، السديم المضطرب العناصر، أتخطّر بين عوالم تامّة من شعوب قد كملت شرائعهم وتنزّهت نظمهم وتنسقت أفكارهم وترتبت أحلامهم وتسجلت رؤاهم في الأسفار والدواوين.

ربّاه! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ويزنون خطاياهم بالموازين، ولديهم سجلات وفهارس لما لا يحصى من التوافه والنقائص التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليست بالخطايا فتُعرف ولا بالفضائل فتُنصف.

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقنّنة مرتّبة. فيفعلون كل شيء في حينه على وفق ما يخطر لهم. فالأكل والشرب والنوم وكساء العرية ثم السآمة والضجر - كلّ في حينه.

والعمل واللعب والغناء والرقص ثم الاستراحة عندما تحين ساعتها.

التفكير بهذا والشعور بذاك ثم العدول عن التفكير والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد.

سلبُ الجار بثغر باسم ومنح العطايا بيد تتوقع الثناء والشكر، ثم المديح بفطنة والملامة بترفّ، وقتل النفس وإحراق الجسد بقبلة، وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء.

المحبة بتقليد مطروق، والتسلية على منوال مسبوق، وعبادة الآلهة كما يحقّ ويليق، والاحتيال على الشياطين والمكر بالزنديق، ثم نسيان كل ما جرى وصار كأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار.

التصوّر لغاية والتأمل بعناية والمسرة بدراية والتألم بوقاية ثم إفراغ كأس الآمال ورجاء أن تملأها الأيام في المآل.

رباه، رباه! إن جميع هذه يسبق الفكر فيحبل بها والعزيمة فتلدها والدقة فتربيها والنظام فيسودها والعقل فيديرها، ثم تنحر وتلحد في زوايا سكينة النفوس فتبقى قبورها الموسومة بالعلامات والأرقام عظة لنا ولجميع الأنام.

أجل، هذا هو العالم الكامل الذي قد بلغ أوجه، عالم الغرائب والمعجزات، بل هو أنضج ثمرة في جنان الله وأسمى عالم بين عوالمه. ولكن لمَ أنا ههنا يا رب؟ لمَ أنا ههنا وأنا ثمرة عجراء لم تنل بعدُ شهوتها من النماء، وعاصفة صمّاء هوجاء لا شرقاً تبتغي ولا غرباً، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر؟

لمَ أنا ههنا؟ لمَ أنا ههنا يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة؟.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السابق

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انت سابق نفسك

أنت سابق نفسك يا صاح، وما الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساس لذاتك الجبارة. وهذه الذات في حينها ستكون أساساً لغيرها.

وأنا مثلك سابقُ نفسي، لأن الظلّ المنبسط أمامي عند شروق الشمس سيتقلص تحت قدمي عند الظهيرة. وسيعقب هذا الشروقَ شروقٌ آخر، فيحدث ظلاً ثانياً أمامي، ولكن هذا الظلّ عينه سيتقلص تحت قدمي أيضاً في ظهيرة أخرى.

منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا، وسنبقى سابقي نفوسنا إلى الأبد. وليس ما حشدنا ونحشدُ في حياتنا سوى بذور نُعدّها لحقول لم تُفلَح بعد. نحن الحقول ونحن الزارعون. نحن الأثمار ونحن المستثمرون.

عندما كنت يا صاح فكرةً هائمة في الضباب كنتُ هنالك فكرة هائمة مثلك، فنشدتُك ونشدتني، فكانت من تشوّقاتنا الأحلام، والأحلام كانت زماناً بلا قيود، والأحلام كانت فضاء بلا حدود.

وعندما كنت كلمة صامتة بين شفتي الحياة المرتعشتين، كنت أنا مثلك هنالك كلمة صامتة، وما تلفظت الحياة بنا حتى برزنا إلى الوجود وقلبانا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخفقان بتذكارات الأمس والحنين إلى الغد. وما الأمس سوى الموت مطروداً ولا الغد سوى الميلاد مقصوداً.

وها نحن الآن في يدي الله، فأنت شمسٌ منيرةٌ في يمناه، وأنا أرض مستنيرة في يسراه، ولكن قوتك الى الإنارة ليست بأفضل من قوتي على الاستنارة.

وما نحن، الشمس والأرض، إلا بداءة لشمس أعظم وأرض أعظم، وسنبقى بداءة إلى الأبد.

أنت سابق نفسك أيها الغريب العابر بباب حديقتي، وأنا مثلك سابق نفسي، ولو كنت أجلس في ظلال أشجاري وأبدو ساكناً هادئاً.

البهلول

جاء في قديم الزمان رجل من البادية إلى مدينة الشريعة العظيمة، وكان بهلولاً خيالياً، ولم يكن له من متاع سوى ثوبه وعصاه.

فكان يطوف في شوارع المدينة ويتأمل هياكلها وأبراجها وقصورها بإعجاب وإجلال، لأن مدينة الشريعة كانت غاية في الجمال. وكان بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهماً عن مدينتهم وغرائبها، فلم يفهموا لغته كما أنّه لم يفهم لغة أحد منهم.

وعند انتصاف النهار وقف أمام فندق فسيح الأرجاء، بديع الهندسة والإتقان، وكان الناس يدخلون إليه ويخرجون منه من غير اعتراض.

فقال البهلول في ذاته: «لا شكّ أن هذا مزار مقدس» ودخل مع الداخلين.

وشدّ ما كانت حيرته عندما وجد نفسه في بهو عظيم، وكبراء القوم، من رجال ونساء، جالسون إلى كثير من الموائد الأنيقة، يأكلون ويشربون،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والموسيقيون يشنفون اذانهم باطرب العزف والغناء.

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته: «قد ضللت، فما هذه بالعبادة التي توهمت، بل هذه مأدبة أعدّها الأمير لشعبه تذكاراً لحادث جلل».

وفي تلك الدقيقة دنا منه رجل، خُيّل إليه أنّه عبد الأمير، وسأله أن يجلس مع الجالسين، فجلس. فقدمت إليه اللحوم، والخمور، والحلوى أفخرها وأشهاها، فأكل هنيئاً وشرب مريئاً.

وعندما بلغ كفافه همّ بالانصراف، ولكنه ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجل بادنٌ متأنّق اللباس فأوقفه.

فقال البهلول في نفسه: «لا شك أن هذا هو الأمير بعينه». فانحنى أمامه وحياه باحترام وشكره بلغة قبيلته.

أما الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة، قائلاً له: «يا سيدي، إنّك لم تدفع بعد ثمن غدائك».

فلم يفهم البهلول شيئاً، ولكنه شكره ثانية من صميم قلبه. فتأمّله الرجل البادن جيداً، وبعد أن أنعم النظر في وجهه مليّاً، أدرك أنه غريب عن المدينة، وعرف من ثيابه الرثّة أنه فقير الحال وليس له ما يدفعه ثمن غدائه، فصفق منادياً، فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومثلوا بين يديه، فقصّ عليهم قصّة البهلول، فألقوا القبض عليه في الحال، ومشوا به اثنين اثنين إلى جانبيه، أما البهلول فكان يتأمّل ملابسهم المزركشة، وهو يكاد يطير فرحاً، قائلا في سرّه: «لا شكّ في أن هؤلاء من أشراف المدينة».

فسار الحراس به إلى أن بلغوا دار القضاء، فدخلوا إلى قاعة المحاكمة، فرأى البهلول أمامه، في صدر تلك القاعة، رجلاً جليلاً، جالساً على منصة عالية، تجلله المهابة وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيبةً ووقاراً. فخُيل إليه أنّه الملك بعينه، وطارت نفسه فرحاً لمثوله أمامه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم بسط الحراس دعواهم إلى القاضي، فعيّن القاضي محاميين، واحداً ليدعي على البهلول، وآخر ليتولى الدفاع عنه. فنهض المحاميان الواحد تلو الآخر وأدلى كلّ بحججه.

أما البهلول فظنّ أنهما يرحبان به باسم الملك، فامتلأ قلبه بعواطف المنّة ومعرفة الجميل للملك، وللأمير، على كل ما جرى له.

وعند انتهاء المحاكمة حكم القاضي بما يأتي على البهلول: «يجب أن تكتب جريمته على لوحة، وتعلّق على صدره، ثم يركب حصاناً عارياً، ويطاف به في المدينة، ويسير المزمرون والمطبلون أمامه».

فنُفذ الحكم في الحال، وأُركب البهلول حصاناً عارياً وطيف به في شوارع المدينة، وسار المزمرون والمطبلون أمامه. وكان سكان المدينة يتراكضون على سماع الأصوات فينظرون إليه وهو على تلك الحالة، ويغربون في الضحك أفراداً وجماعات. وكان الأولاد يركضون وراءه من شارع إلى شارع زرافات زرافات.

أما البهلول فكان ينظر إليهم بعينين مشرقتين فرحاً والدهش آخذ منه مأخذه. لأنّه كان يعتقد أن اللوحة المعلقة على صدره إنما هي وسام قدمه له الملك عربون بركته ورضاه عن زيارته، وإن ذلك الموكب ما سار إلا احتفاء بحضرته.

وحدث أنّه فيما هو راكب والجمع يحشده، رأى بينهم بدوياً من قبيلته، فاختلج قلبه طرباً، وهتف به بأعلى صوته قائلا: «بربك يا صاح! أين نحن الآن؟ أليست هذه المدينة التي يسميها شيوخنا مدينة رغائب القلب، وشعبها الأريحيون الفياضون، الذين يحتفون بعابر السبيل في قصورهم، ويرافقه أمراؤهم، ويشرّف ملكهم صدره بالنياشين فاتحاً له أبواب مدينته الهابطة من السماء؟».

فلم يقل البدوي الثاني كلمة قط، ولكنه تبسم وهزّ رأسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الموكب فاستمرّ في سيره. وكان وجه البهلول مرتفعاً أبداً والنور يفيض من عينيه.

المحبة

يقولون ان ابن آوى يشرب من الجدول الواحد الذي يشرب منه الأسد. ويقولون إن النسر والشوحة ينقدان الجيفة الواحدة وهما متفقان متسالمان. فيا أيتها المحبة العادلة، ويا من كبحت جماح رغائبي بيدك القديرة، وحولت مجاعتي وعطشي إلى إباء وشمم، لا تأذني للقوي العزوم فيّ أن يأكل الخبز، أو يشرب الخمر، اللذين يستهويان ذاتي الضعيفة.

ذريني بالأحرى فأقضي جوعاً بل دعي قلبي يتلهب عطشاً.

واتركيني أموت وأفنى، قبل أن أمدّ يدي لقدح لم تملإيه أو كأس لم تباركيها.

الملك الناسك

خبرّت أن فتى يعيش في غابة بين الجبال، وأنّه كان فيما مضى ملكاً على بلاد واسعة الأرجاء في عبر النهرين. وقيل لي أيضاً إن هذا الفتى قد تخلى، بملء اختياره، عن عرشه وعن أرض أمجاده، وجاء ليستوطن القفار. فقلت في نفسي: لأسعينّ إلى ذلك الرجل سعياً، وأقف على ما في قلبه من اسرار، لأن من يتنزل عن الملك فهو بلا شك أعظم من المُلك!!!

فذهبت على الفور إلى الغابة حيثما كان قاطناً. فوجدته جالساً في ظلال سروة بيضاء، وبيده قصبة كان ممسكاً بها كأنما هي صولجانه. فحييته تحية الملوك، وبعد أن ردّ التحيّة التفت إليّ وقال بلطف: «ما عساك تبتغي في هذا الغاب الأعزل يا صاحبي؟ أجئتَ تنشد ذاتاً ضائعةً في الظلال الخضراء، أم هي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عودة إلى مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار؟

فأجبته قائلاً: « إنني ما نشدت إلاّك، ولا شاقني إلا الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيرة!»

فقال: « وجيزةٌ هي قصّتي، فقد انطفأت فقاقيع غروري فجأة وإليك حكايتي: بينما كنت جالساً إلى نافذة في قصري، كان وزيري يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي. وعندما صارا على مقربة من نافذتي سمعت الوزير يتكلم عن نفسه قائلاً: «أنا مثل الملك أتعطش للخمرة المعتقة، وأعشق جميع ضروب المقامرة، ويثور بي ثائر الغضب كسيدي الملك.» ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار. ولكنهما ما لبثا أن عادا بعد برهة، وإذا بالوزير يتكلم عنّي في هذه المرة قائلا: « إن سيدي الملك مثلي يحسن الرماية، ويتعشق الألحان، وهو مثلي يستحم ثلاثاً في النهار.»

وسكت لحظة ثم زاد قائلاً: «في عشية ذلك اليوم تركت بلاطي، ولا شيء معي سوى عباءتي، لأني لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم يدّعون نقائصي لأنفسهم ويعزون فضائلهم إليّ».

فقلت له: «ما أغرب قصتك، وما أعجب أمرك!».

فأجابني قائلاً: «ليس هنالك من غرابة يا صاحبي، فقد قرعت أبواب سكينتي طامعاً منها بالكثير، فلم يكن لك منها سوى اليسير. بربك قل لي: من لا يستبدل مملكة بغابةٍ تترنم فيها الفصول، وترقص طروباً أبداً؟ كثيرون هم الذين تركوا ممالكهم ليستبدلوا بها أدنى مراتب الوحدة والتمتّع بحياة العزلة السعيدة، وكم هنالك من نسور هبطت من جوها الأعلى، لتعيش مع المناجذ في أنفاقها الصامتة فتتفهم أسرار الغبراء! بل ما اكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لئلاّ يظهروا للناس أنهم بعيدون عمن لا أحلام في نفوسهم، والذين يعتزلون مملكة العري، ساترين عري نفوسهم، حتى لا يستحي الأحرار من النظر إلى الحقّ عارياً والتأمل بالجمال سافراً. وأعظم من هؤلاء جميعهم ذاك الذي يعتزل مملكة الحزن، لكي لا يظهر للناس معجباً مفاخراً بكآبته».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم نهض متوكئاً على قصبته وقال: «ارجع الآن الى المدينة العظمى، وقف بأبوابها مراقباً جميع الداخلين والخارجين منها. واعنَ بأن تجدَ الرجل الذي على رغم أنه ولد ملكاً فهو بدون مملكة. والرجل الذي على رغم أنه مسودٌ بجسده فهو سائد بروحه، ولكنه لا يدري بذلك ولا رعاياه يدرون بسيادته. والرجل الذي يبدو للعيان حاكماً ولكنه في الحقيقة عبد لعبيد عبيده».

وبعد أن فرغ من كلامه نظر إليّ، فلاحت لي منه ابتسامة خلتها ألف فجرٍ وفجر.

ثم تحوّل عني متغلغلاً في قلب الغابة.

أما أنا فرجعت إلى المدينة، ووقفت بأبوابها أراقب العابرين بي، على نحو ما قال لي. وما أكثر الملوك الذين مرت ظلالهم فوقي، منذ ذلك اليوم حتى الساعة، وأقل الرعايا الذين مرّ فوقهم ظلّي!

الظلم مرتعه وخيم

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة:

«سيأتي قريني راكباً على الأمواج،

«وسيملأ الأرض رعباً بهديره العجاج،

«وستندلع نيران منخريه في أقاصي الفضاء.

«عند خسوف القمر سأزف إليه،

«وعند كسوف الشمس سألد جورجيوس آخر فيذبحني».

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يروّحون بمراوحهم لملكة حيزبون كانت نائمة على عرشها تغطّ غطيطاً غليظاً. وكان في حضن الملكة هرّةٌ متكئة تموء وهي تنظر إلى العبيد نظرة كره واشمئزاز.

فقال العبد الأول لرفقائه: «ما أبشع هذه الحيزبون نائمة! انظروا كيف تراخت شفتاها، وهي تصعّد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ بخناقها».

فماءت الهرّة قائلة: «إن بشاعتها في رقدتها ليست جزءاً من بشاعتكم في عبوديتكم وأنتم مستيقظون».

ثم قال العبد الثاني: «ومن الغريب أن النوم لم يلطف ملامح وجهها، بل زادها تجعداً، فهي ولا شكّ حالمة حلماً شريراً راعباً».

فماءت الهرة قائلة لهم: «حبذا لو تنامون أنتم وتحلمون بحريتكم!»

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضاً: «يلوح لي أنها ترى في منامها موكب جميع ضحاياها الذين قتلتهم ظلماً وعدواناً».

فماءت الهرة قائلة: «نعم، فهي ترى مواكب أجدادكم وحفدتكم».

ثم قال العبد الرابع: «ما أغباكم تتحدثون عن هذه الملكة وهي نائمة، وماذا يجديكم الحديث نفعاً أو يجديني؟ ألعلّه يخفف عني نصيبي في وقوفي وعنائي في ترويحي لها؟»

فقالت الهرة وهي تموء: «أجل، إنّكم ستروّحون إلى دهر الداهرين، لأنه كما على الأرض كذلك في السماء».

وفي تلك اللحظة تحركت الملكة في نومها فسقط تاجها على الأرض فقال واحدٌ من العبيد: «إن في ذلك لشؤماً!»

فماءت الهرة وقالت: «مصائب قوم عند قوم فوائد».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال العبد الثاني: «ماذا يحلّ بنا إذا أفاقت الآن من نومها ورأت تاجها ساقطاً على الأرض؟ والله إنها تذبحنا جميعنا!»

فماءت الهرة قائلة: «قد كانت تذبحكم منذ ميلادكم أيها الأغبياء وأنتم لاتعلمون».

وقال العبد الثالث: «إنها ولا شكّ تذبحنا، وتعتبر أنها بعملها هذا إنما تقرب عبادة لآلهتها».

فماءت الهرة قائلة: «لايُضحّي للآلهة إلا الضعفاء».

أما العبد الرابع فأسكت رفقاءه عن الكلام، والتقط التاج بتأنّ ووضعه على رأس الملكة من غير أن يوقظها.

فماءت الهرّة وقالت بصوت عال: «الحقّ أقول لكم إنّه لا يلتقط التيجان المتدحرجة سوى العبيد.» وبعد هنيهة استيقظت الملكة، وتلفتت حواليها متثائبة ثم قالت لعبيدها: «يخيلُّ إلي أني حلمت بأني رأيت أربع حشرات يطاردها عقرب حول جذع سنديانة جبارة. قبّحه الله من حلم مزعج!»

وأطبقت عينيها فنامت ثانية بعد أن ملأت القاعة بغطيطها، فطفق العبيد الأربعة يروّحون لها على جاري عادتهم.

أما الهرّة فماءت قائلة: «روّحوا، روّحوا أيها العميان والأغبياء، فأنتم لا تروّحون إلاّ ناراً تلتهم وجودكم!».

القديس

زرت في حداثتي قديساً في صومعته الهادئة، القائمة بين التلال، وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة أطلّ علينا لصّ وهو يتعرّج على الجانبين فوق الروابي، والتعب قد أعياه. وعندما وصل إلى الصومعة جثا على ركبتيه أمام القديس وقاله له: «أيها القديس الشفيق قد جئتك طالباً تعزية، فإن آثامي قد تعالت فوق رأسي».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأجابه القديس قائلا: «يا ابني، إن آثامي أنا أيضاً قد تعالت فوق رأسي».

فقال له اللص: «عفوك يا سيدي! فأنا سارق، وقاطع طريق، ويستحيل أن تكون مثلي».

فأجابه القديس: «إنّك واهمٌ يا ابني، فإنني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق».

فقال له اللص: «ماذا تقول يا سيدي؟ فأنا قاتل ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في أذني».

فأجابه القديس؛ «وأنا أيضاً قاتل يا ابني وفي أذني تصرخ دماء الكثيرين».

فقال له اللص : «يا سيدي أنا قد ارتكبت شروراً لاتحصى، وجرائم لا عداد لها، فكيف تساوي نفسك بي وأنت رجل الله البار؟»

فأجابه القديس وقال: «لو أنك عرفتَ كثرة شروري لما ذكرت شرورك».

فانتصب اللص إذ ذاك وحدّق إلى القديس طويلاً، وملء عينيه دهشة وغرابة، ومضى من غير أن ينبس ببنت شفة.

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة. فالتفتّ آنئذ إلى القديس، وسألته قائلاً: «ما دعاك إلى أن تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قطّ يا سيدي؟ ألا ترى أن هذا الرجل قد مضى ولم يعد من المصدقين بدعوتك، والمؤمنين ببشارتك؟»

فأجاب القديس وقال: «أجل يابني، فإنّك بالصواب حكمت، بأنّه لم يعد من المصدقين بدعوتي، ولكن الحقّ أقول لك إنّه قد انصرف والعزاء يملأ فؤاده».

وفي تلك اللحظة سمعنا اللص يغني من بعيد، وكانت الأودية تردّد صدى صوته الممتلئ بالمسرة والتعزية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطمع

رأيت في جولاني في الأرض وحشاً على جزيرة جرداء له رأس بشري، وحوافر من حديد.

وكان يأكل من الأرض ويشرب من البحر بلا انقطاع. فوقفت أراقبه ردحاً، ثم دنوت منه وسألته قائلاً: «ألم تبلغ كفافك بعدُ؟ أليس لجوعك من شبع أو لظمإك من ارتواء؟»

فأجابني وقال: «نعم، نعم قد بلغت كفافي بل قد مَللت الأكل والشرب ولكنني أخاف أن لا تبقى إلى غد أرض لآكل منها وبحر لأرتوي من مائه».

الذات العظمى

حدث بعد تتويج نُفسيبعل، ملك جبيل، أنّه انصرف إلى مقصورته، وهي الغرفة التي بناها له عرّافو الجبل النسالك، فنزع تاجه، وخلع «برفيره» ووقف في وسط المقصورة، مفكراً في عظمته المتناهية، كملك جبيل الواسع السلطان في ذلك الزمان.

وكان في صدر تلك المقصورة مرآة مفضضة الإطار، أهدتها إليه أمه، فالتفت إليها بغتة، وإذا برجل عارٍ قد خرج منها وتقدم إليه.

فأخذ الرعب بمجامع قلبه وصرخ بالرجل قائلاً: «ماذا تريد أيها الرجل؟»

فأجابه الرجل وقال: «أودّ شيئاً واحداً أيها الملك، وهو أن تخبرني لماذا توجوك ملكاً على هذه البلاد؟»

فقال له الملك: «قد توجوني مليكاً عليهم لأنّني أنبل رجل بينهم».

فقال له الرجل: «والله لو كنت أنبل مما أنت لما قبلت الملك».

فأجابه الملك: « بل إنما توجوني لأنّني أشدّهم بأساً وقدرة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال له الرجل: «لو كنت بالحقيقة أشدّهم بأساً لما قبلت أن تكون مليكاً عليهم».

فقال له الملك: «ألا إنما توجني شعبي لأنّني أوفرهم حكمة».

فأجابه الرجل قائلاً: «والله لو كنت أوفر حكمة مما أنت الآن لما اخترتَ أن تكون ملكاً».

فسقط الملك حينئذ على الأرض وبكى بكاء مراً. أما الرجل العاري فكان ينظر إليه بشفقة وحنان آسفاً على جهله وغروره. ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ووضعه بلطف على رأسه المنحني، وعاد فدخل في المرآة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقة وحسرة.

أما الملك فنهض بغتةً إلى المرآة. وتأملها جيداً فلم يرَ هنالك أحداً إلاه وتاجه على رأسه.

الحرب والامم الصغيرة

كان في أحد المروج نعجة وحمل يرعيان. وكان فوقهما في الجوّ نسرٌ يحوم ناظراً إلى الحمل بعين جائعة يبغي افتراسه. وبينما هو يهم بالهبوط لاقتناص فريسته، جاء نسر آخر وبدأ يرفرف فوق النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله.

فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحشي أطراف الفضاء. فرفعت النعجة نظرها إليهما منذهلة، والتفتت إلى حملها وقالت: «تأمل يا ولدي، ما أغرب قتال هذين الطائرين الكريمين! أوَليس من العار عليهما أن يتقاتلا، وهذا الجو الواسع كافٍ لكليهما ليعيشا متسالمين؟ ولكن صلّ يا صغري، صلّ في قلبك إلى الله، لكي يرسل سلاماً إلى أخويك المجنحين!»

فصلّى الحمل من أعماق قلبه!.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناقدون

في عشية أحد الأيام كان المسافر راكباً حصانه وسائراً إلى الساحل، فوصل في طريقه إلى فندق. فترجل وربط حصانه إلى شجرة أمام الباب، لأنّه كان واثقاً بالليل وبالناس شأن أقرانه المسافرين إلى السواحل، ثم دخل إلى الفندق مع الداخلين.

وعند انتصاف الليل كان جميع من في الفندق نياماً، فجاء لصّ وسرق حصان المسافر فلم يدرِ به أحد.

وفي الصباح نهض المسافر من نومه، وجاء على الفور إلى حيث ربط حصانه فلم يجده. وبعد أن فتش عنه جيداً عرف أن لصاً سرقه في تلك الليلة، فتأثر كثيراً على فقد حصانه، ولكنه حزن بالاكثر على أن بين الناس من يغريه الشرّ فيعمد إلى السرقة.

وعندما عرف رفقاؤه المسافرون بما جرى له، تجمعوا حواليه، وبدأوا ينحون عليه باللائمة معنفين إياه.

فقال الأول: «ما أحمقك أيها الرجل! لماذ ربطت حصانك خارج الاصطبل؟»

ثم قال له الثاني: «إنّني أستغرب كيف أنّك لم تحجل(تقيّد) الحصان عندما ربطته. فما أوفر جهلك؟»

فقال الثالث لرفيقيه: «إنّ السفر إلى البحر على ظهور الخيول غباوةٌ من أساسه.

فقال الرابع: « أما أنا فأعتقد أنّه لا يقتني الخيول إلا كل بليد بطيء الخطى».

فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم في الوعظ والإرشاد بعد فوات الأوان. ثمّ قال لهم وهو يتميز غيظاً: «أيها الأصحاب، عندما سرق حصاني جاءتكم الفصاحة عفواً، فأسرعتم الواحد تلو الآخر تعددون هفواتي وزلاتي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن يدهشني كيف أنكم، مع ما أوتيتم من قوة البيان، لم يقل أحد منكم كلمة عمّن سرق الحصان!»

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين إلى خوان، وكان على الخوان إناء من الخمر.

فقال الشاعر الأول: «يخيل إليّ أني أرى عبير هذا الخمر مرفرفاً في الفضاء، كسحابة من الطيور في غاب مسحور».

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال: « أما أنا فإني أسمع بأذني الباطنة هذه الطيور تغرد فتأخذ ألحانها بمجامع قلبي فتأسره كما تأسر الزنبقة النحلة بين وريقاتها».

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذراعه وقال: «أما أنا فإني أكاد ألامسها بيدي، أشعر بحفيف أجنحتها يهبّ في وجهي كأنّه لهاثُ جنيّة نائمة».

فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك، ورفع الإناء بيديه وقال: «عفوكم أيها الاخوان! فإني ضعيف البصر، ثقيل السمع،كليل اللمس، فليس في طاقتي أن أرى عبير هذه الخمرة، ولا أن اسمع غناءها، ولا أن أشعر برفرفة أجنحتها. أوّاه! إنّني لا أشعر بغير الخمرة ذاتها، ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ حواسي الخاملة، وتشعل روحي بنار بركتكم العلويّة ووحيكم الطهور».

ثم وضع إناء الخمر على شفتيه وأتى على آخر نقطة فيه.

أما الشعراء الثلاثة رفقاؤه، فكانوا ينظرون إليه بدهشة، فاتحين أشداقهم. وفي عيونهم غُلّةٌ لا تُروى لهبتها وبغضة لا تخمد حدتها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دوارة الريح

قالت دوّارة الريح للريح: «قبحك الله، ما أثقلك وما أملّك! أليس في وسعك أن تهبّي في وجه غير وجهي؟ ألا تعلمين أنّك بعملك هذا إنما تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه الله؟»

فلم تجب الريح بكلمة قطّ، ولكنها ضحكت في الفضاء.

ملك اردوسة

مَثُل شيوخ مدينة«اردوسة» مرة في حضرة الملك، والتمسوا منه أمراً يقضي بمنع المسكرات في مدينتهم.

فلم يجب الملك سؤلهم، بل ولاهم ظهره وتركهم ومضى، ضاحكاً منهم في سرّه.

فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين.

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك، وكان هذا الوزير داهيةً، فلحظ اضطرابهم وعرف قصتهم.

فقال لهم: «أوّاه أيها الأصحاب! فإن الحظّ لم يسعدكم لأنكم لو أتيتم إلينا عندما يكون ملكنا سكران لكنتم حصلتم في الحال على ما طلبتم!»

طائر ايماني

من اعماق قلبي هبّ طائرٌ وصعد محلّقاً في الفضاء، وكان كلما حلّق في الجوّ، أكثر فأكثر، يزداد كبراً فكبراً فبدا أولاً كالخطاف، ثمّ صار كالقّبرة، فكالنسر، إلى أن أصبح كسحابة الربيع اتساعاً، فملأ السماوات المرصعة بالنجوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أعماق قلبي هبّ، وحلق في الفضاء، وكان يزداد حجمه كلما طار.

ومع ذلك فإنّه ظلّ ساكناً في أعماق قلبي.

فيا إيماني، يا معرفتي الجامحة القديرة،

كيف أبلغ سموّك، فأرى وأياك ذات الانسان الفضلى المرسومة على أديم السماء؟

كيف أحوّل هذا البحر الذي في أعماق نفسي، إلى ضباب كثيف، وأهيم وإياك في فضاء اللانهاية؟

أوَهل يستطيع السجين في ظلمات الهيكل أن يرى قباب الهيكل المذهّبة؟

أم هل للنواة أن تتمدّد فتغلف الثمر كما كان يغلفها من ذي قبل؟

أجل يا إيماني الحليم! أجل. فإني مقيد بالسلاسل الحديدية في غيابات هذا السجن المحدود، تفصلني عنك هذه الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم، وليس لي أن اطير معك الآن إلى عالم اللاحدود.

بيد أنّك من قلبي تنبثق محلّقاً في الفضاء الواسع، وأنت لا تزال قاطناً في أعماق قلبي الوجيع، وإني بذلك لراضٍ مستسلم قنوع.

الخلافات

حدث عندما كانت ملكة«عيشانا» في فراش مخاضها والملك وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة، وهم جالسون على أحرّ من الجمر في قاعة الثيران المجنحة[1] أن دخل عليهم فجأة رسول مستعجل، وركع عند

---

(١) كان عند قدماء الأشوريين إله له رأس إنسان وجسم ثور وأجنحة طائر، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر، وبجسمه عن العزم، وبأجنحته عن الخيال. وهذا ما عناه المؤلف بقوله «قاعة الثيران المجنحة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدمي الملك وقال: «أيها الملك المعظم، إنني احمل لكم بشائر الفرح، وللملكة، ولعبيد الملك أجمعين، وذلك أن محراب « الجائر» عدوك اللدود، ملك «البترون» قد قضى نحبه».

فلمّا سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى نهضوا منتصبين على أقدامهم، وهللوا فرحين لأنه لو طال أجل محراب الجبار سنةً واحدة، لغزا أرض« عيشانا» وقاد سكانها عبيداً إلى بلاده.

وفي تلك اللحظة دخل طبيب البلاط إلى قاعة الثيران المجنحة، ودخلت وراءه قابلة الملكة، فانحنى الطبيب احتراماً للملك وقال له: «ليعش سيدي الملك إلى الأبد، فها قد رزقك الله طفلاً ذكراً، سيخلفك على العرش، ويخلد حكمك على شعوب « عيشانا» عديد السنين!»

فتهلل الملك، وطارت روحه فرحاً، لانّه في اللحظة الواحدة هلك عدوّه، وتأصلت الخلافة في نسله.

وكان في مدينة«عيشانا» في ذلك العهد نبي حقّ، ولكنه كان فتى جريئاً باسل الروح. فأمر الملك أن يحضر النبي بين يديه في تلك الليلة، فأحضر في الحال.

فقال له الملك : «تنبأ ايها النبي، وقل لنا كيف سيكون مستقبل ابني الذي وُلد الآن للمملكة».

فأجابه النبيّ على الفور قائلا: «اصغ ايها الملك فأنبئك الصدق عن مستقبل ابنك الذي وُلد لك اليوم: فإن روح عدوك ـ عدوك اللدود الملك محراب ـ الذي مات في مساء الأمس ، لم تلبث على متن الأرياح سوى ليلة واحدة وقد هبطت إلى الأرض ثانية تطلب جسداً تأوي إليه، فلم ترَ أفضل من جسد ابنك هذا الذي وُلد لك اليوم فتقمصته».

فاستشاط الملك غيظاً، واستلّ سيفه، وقطع رأس النبي بيده والزبد يخرج من فمه غضباً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وها قد مرت الأيام، وتصرمت حبال السنين على تلك الحادثة، وحكماء « عيشانا» يُسرّون واحدهم للآخر قائلين: «أما قيل لنا في القدم، وأثبتت الأيام ذلك القول، إن «عيشانا» يحكمها عدوها؟».

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة نهر كبير. فجاءت موجة هوجاء واختطفت القرمة إلى وسط النهر، فحملتها المياه وسارت بها ببطء مع مجرى النهر. فرقصت الضفادع فرحاً بهذه السياحة اللطيفة فوق المياه، لأنّه لم يسبق لهنّ أن أبحرن بعيداً من ذي قبل.

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأولى قائلة: يا لها من قرمة عجيبة غريبة! تأملن أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الأحياء. والله إنني لم أسمع قط بمثلها».

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت: «إن هذه القرمة لا تمشي، ولا تتحرك أيتها الصديقة، وهي ليست عجيبة غريبة كما توهمت، ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها إلى البحر تحمل هذه القرمة معها وتحملنا نحن أيضاً بانحدارها».

فقالت الضفدعة الثالثة: «لا لعمري، فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب. فإن القرمة لا تتحرك والنهر أيضاً لا يتحرك، وإنما الحقيقة أن فكرنا هو المتحرك فينا، وهو الذي يقودنا إلى الاعتقاد بحركة الأجسام الجامدة».

وتناظرت الضفادع الثلاث في ما هو متحرك بالحقيقة. وحمي وطيس الجدال وعلا الصراخ بينهن ولم يتّفقن على رأي واحد.

ثم التفتن إلى الضفدعة الرابعة التي كانت إلى تلك الساعة هادئة صامتة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصغي إليهنّ بانتباه واستيعاب، وسألنها رأيها في الموضوع.

فقالت لهنّ: «كلكنّ محقات أيتها الرفيقات، ولا واحدة منكنّ على ضلال. فإن الحركة كائنة في القرمة وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد».

فلم يرقهنّ ذلك الكلام، لأن كلّ واحدة منهنّ كانت تعتقد أنها وحدها المصيبة وأن رفيقاتها لفي ضلال مبين.

وما أغرب ما حدث بعد ذلك! فإن الضفادع الثلاث تسالمن بعد العداء، وتجمّعن فرمينَ بالضفدعة الرابعة من على القرمة إلى النهر.

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج: «قد بُرئتُ نقية طاهرة وسأظلّ نقيّة إلى الأبد. وإنني لأوثر أن أحرق وأتحول إلى رماد أبيض، على أن آذن للظلمة فتدنو مني وللأقذار فتلامسني».

فسمعت قنينة الحبر قولها وضحكت في قلبها القاتم المظلم ولكنها خافت ولم تدنُ منها.

وسمعتها الأقلام أيضاً على اختلاف ألوانها ولم تقربها قط.

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج ـ نقية طاهرة ـ ولكن.. فارغة.

العالم والشاعر

قالت الحية للحسون: «ما أجمل طيرانك أيها الحسون! ولكن حبذا لو أنّك تستطيع أن تنسلّ إلى ثقوب الأرض وأوكارها. حيث تختلج عصارة الحياة في هدوء وسكون!».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأجابها الحسون وقال: «أي وربي! إنّكِ واسعة المعرفة بعيدتها، بل أنتِ أحكم جميع المخلوقات، ولكن حبذا لو أنك تطيرين».

فقالت الحيّة كأنها لم تسمع شيئاً: «مسكين أنت أيها الحسون! فإنك لا تستطيع أن تبصر أسرار العمق مثلي، ولا تقدر أن تتخطر في خزائن الممالك الخفية، فترى أسرارها ومحتوياتها. أما أنا فلا أبعد بك، فقد كنت في الأمس متكئة في كهف من الياقوت الأحمر أشبه بقلب رمانة ناضجة، وأضأل الأشعة تحوّلها إلى وردة من نور. فمن أعطي سواي في هذا العالم أن يرى مثل هذه الغرائب؟».

فقال لها الحسون: «بالصواب قد حكمتِ أيتها الحكيمة، فلا أحد إلاكِ يستطيع أن يفترش ما تبلور من تذكارات العصور، وآثار الدهور. ولكن وا أسفاه، فإنّك لا تغرّدين!».

فقالت الحية: «إنني أعرف نباتاً تمتدّ جذوره إلى أحشاء الأرض، وكل من يأكل من تلك الجذور يصير أجمل من «عشتروت».

فأجابها الحسون قائلاً: «لا أحد، لا أحد إلاكِ قد اهتدى إلى حسر القناع عن فكر الأرض السحري. ولكن وا أسفاه، فإنّكِ لا تطيرين!».

فقالت الحية: «وأعرف جدولاً أرجوانيّاً يجري تحت جبل عظيم، وكلّ من يشرب من هذا الجدول يصير خالداً خلود الآلهة. وليس بين الطير أو الحيوان من اهتدى إلى ذلك الجدول سواي».

فأجاب الحسون وقال: بلى والله. فإن في منالك أن تكوني خالدة مثل الآلهة لو شئتِ. ولكن وا أسفاه، فإنّك لا تغرّدين!».

فقالت الحية: «وأعرف هيكلاً مطموراً تحت تراب الأرض، لم يهتدِ إليه باحثٌ أو منقّبٌ بعد، أزوره مرّة في الشهر. وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة. وقد نُقشت على جدرانه أسرار جميع الأزمنة والأمكنة، وكلّ من يقرأها ويفهمها يوازي الآلهة في العقل والمعرفة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأجابها الحسون قائلاً: «بلى أيتها الحكيمة العزيزة، فإنّك لو شئت لاستطعت أن تكتنفي بلين جسدك جميع معارف الأجيال. ولكنك وا أسفاه لا تقدرين أن تطيري!».

فاشمأزت الحية إذ ذاك من حديثه. وارتدّت عنه إلى وكرها، وهي تبربر في ذاتها قائلة: «قبحه الله من غرّيد فارغ الرأس!».

أما الحسون فطار وهو يغني بأعلى صوته قائلا: «وا أسفاه، إنك لا تغردين! واأسفاه، واأسفاه يا حكيمتي، إنك لا تطيرين!».

الأثمـان

كان رجل يحفر في حقله. وفيما هو يحفر عثر على تمثال بديع من المرمر الجميل، فأخذه ومضى به إلى رجل كان شديد الولع بالآثار والعاديّات وعرضه عليه، فاشتراه منه بأبهظ الأثمان، ومضى كل منهما في سبيله.

وبينما كان البائع راجعاً إلى بيته أخذ يفكر في ذاته قائلاً: «ما أكثر ما في هذا المال من القوة والحياة! إنّه بالحقيقة ليدهشني كيف أن رجلاً عاقلاً ينفق مالاً هذا مقداره لقاء صخر أصم فاقد الحركة، كان مدفوناً في الأرض منذ ألف سنة ولم يحلم به أحد».

وفي الساعة عينها كان المشتري يتأمل التمثال مفكّراً وقائلاً في ذاته: «تبارك ما فيك من الجمال! تبارك ما فيك من الحياة! حلم أية نفس علوية أنت؟ هذه بالحقيقة نضارةٌ أعطيتها من نوم ألف سنة في سكينة الأرض! إنني والله لا أفهم كيف يمكن الإنسان أن يبيع مثل هذه الطرفة النادرة بمال جامد زائل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها: «يوجد فوق بحرنا هذا بحرٌ آخر، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن ههنا ونسبح».

فأجابتها أختها وقالت: «تلك أوهام! تلك أوهام! ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد، ويبقى خارجاً عنه، يموت في الحال؟ إذن، فما هي حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أخرى؟».

التوبة

دخل رجلٌ في ليلة ظلماء إلى حديقة جاره، فسرق أكبر بطيخة وصلت إليها يده وحملها وجاء بها إلى بيته.

وعندما كسرها وجد أنها عجراء لم تبلغ بعد نموها، فتحرك ضميره في داخله إذ ذاك، وأوسعه تأنيباً، فندم على أنه سرق البطيخة...

المحتضر والشوحة

مهلاً ولا تلجّي يا أختاه، مهلاً!
فعمّا قريب أترك لك هذه البقية التلفة،
فإنها تستفرغ صبرك بطول نزاعها.

إنّني أضنّ بجوعك أن يترقّب تصرم هذه الهنيهات، لأن هذه القيود وإن كانت من اللهاث، فإن كسرها لعسير. إن رغبتي في الموت، وهي أبعد رغائبي، مقيدة بسلاسل رغبتي في الحياة، وهي أدنى رغائبي.

عفوك أيتها الرفيقة، فإنّني متماهلٌ بطيء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هي الذكرى تمسك بروحي فتعيد إليها تذكارات مضت فتريها مواكب الأيام الذاهبة،

ومرأى شباب غابر قضيته في حلم.

وتشخص أمامي وجهاً يأمر أجفاني بألا تغمض.

وتعيد إلى مسمعي صوتاً لا يزال صداه متردّداً في أذني،

ويداً تلامس يدي ولا أراها.

عفوكِ أيتها الرفيقة، فقد طال انتظارك.

ولكن ها قد دنت الساعة وكل شيء عابر زائل: الوجه والعينان واليدان، والضباب الذي جاء بها.

ها قد حُلّت العقدة،

قد تقطّع الحبل.

وذلك الذي ليس بالطعام ولا بالشراب قد تنحّى وراح.

تقدمي يا رفيقتي الجائعة، تقدمي فقد أعدّت المائدة والطعام حقير يسير ولكنه يقدم بمحبة.

هلمي واغرزي منقارك في جنبي الأيسر،

وأخرجي من بين قضبان قفصه هذا الطائر الأصغر،

الذي لن يرفرف جناحاه فيما بعد.

بربّك خذيه وحلّقي به في رحاب الفضاء.

هلمّي، هلمّي إليّ يا صديقتي،

فأنا مُضيفكِ الليلة، وأنتِ ضيفي العزيز، فأهلاً ومرحباً!.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراء وحدتي

إنّ وراء وحدتي وحدة أبعد وأقصى.
وما انفرادي للمعتزل فيها سوى ساحة تغص بالمزدحمين.
وما سكوني للساكنين فيها سوى جلبةٍ وضجيج.
إنّني حَدَثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الوحدة القاصية؟
إنّ ألحان ذلك الوادي تتموّج في أذنيّ،
وظلاله السوداء تحجب الطريق عن عينيّ،
فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية؟
إن وراء هذه الأودية والتلال غابة حبّ وافتتان،
وما سكوني لمن فيها سوى عاصفة هوجاء صماء،
وما افتتاني لعاشقيها سوى انخداع وغرور.

إنّني حَدَثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الغابة القدسية؟
فإن طعم الدماء لا يزال في فمي،
وقوس أبي ونشابه ما برحا في يدي،
فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية؟

إن لي وراء هذه الذات السجينة ذاتاً حرة طليقة،
وما أحلامي في عقيدتها سوى حرب في ظلام،
وما رغائبي تجاه رغائبها سوى قرقعة عظام.

إنني حدث مهان ذليل بعد،
فكيف أكوّن ذاتي الحرة الطليقة؟
أجل، كيف أكوّن ذاتي الحرة الطليقة ـ
قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي المستعبَدة،
أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء؟

إذ كيف تطير أوراقي مترنمة فوق الريح ـ
قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل كيف يحلّق نسر روحي طائراً أمام وجه الشمس ـ
قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بعرق وجهي؟.

اليقظة الأخيرة

في غلس الليل العميق، وقد هبّ النسيم معطراً بأنفاس الفجر الأولى، نهض «السابق ـ وهو صدى الصوت الذي لم تسمع به أذنٌ بعد ـ فترك مقصورته وصعد إلى سطح بيته. وبعد أن وقف هنالك طويلاً ينظر إلى المدينة الهاجعة في سكينة الليل، رفع رأسه، وكأنما قد تجمع حواليه أرواح أولئك النائمين المستيقظة، وفتح فاه وخاطبهم قائلاً:

«يا إخوتي وجيراني، ويا أيها المارّون ببابي في كل يوم، إنّني أودّ أن أناجيكم في نومكم، وفي وادي أحلامكم، أود أن أمشي مطلقاً عارياً، فإن ساعات يقظتكم أشدّ غفلة من نومكم، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة صمّاء.

«لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير.
«قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم،
«وأحببتكم جميعاً كما لو كنتم واحداً.
«ففي ربيع قلبي كنت أترنّم في جنانكم،
«وفي صيف قلبي كنت أحرس بيادركم.

«أجل، قد أحببتكم جميعكم، جباركم وصعلوككم، أبرصكم وصحيحكم، وأحببت من يتلمّس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام.

«أحببتك أيها القوي، مع أن آثار حوافرك الحديدية لا تزال ظاهرة في لحمي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وأحببتك أيها الضعيف على رغم أنّك جففت إيماني، وعطلت عليّ صبري.

«أحببتك أيها الغني، في حين أنَّ عسلك كان علقماً في فمي. وأحببتك أيها الفقير مع أنّك عرفت عوزي وفراغ ذات يدي.

«أحببتك أيها الشاعر المقلد، الذي يستعير قيثارة جاره ليضرب عليها بأصابعه العمياء، أحببتك كرماً ولطفاً. وأحببتك أيها العالم الدائب عمره في جمع الأكفان الرثة من حقل الخزّاف الممقوت.

«أحببتك أيها الكاهن الجالس في سكون أمسه متسائلاً عن مصير غده.

«وأحببتك أيها العابد الذي يتخذ له من أشباح رغائبه آلهة يعبدها.

«أحببتكِ أيتها المرأة، المتعطشة وكأسها مملوءة أبداً، لأنّني عرفت سرّكِ.

«وأحببتك أيتها المرأة الساهرة لياليها، مشفقاً عليكِ.

«أحببتكَ أيها الثرثار قائلاً في نفسي: «إنّ للحياة كثيراً فتقوله».

«وأحببتك أيها الأبكم قائلاً في سري: «حبذا لو أسمع نطقاً يعبر عمّا في صمته».

«أحببتك أيها القاضي والناقد، ولكنكما عندما رأيتماني مصلوباً قلتما: «ما ألطف نزف دمائه من عروقه، وما أجمل الخطوط التي ترسمها في مسيلها على جلده الناصع!».

أجل، أحببتكم جميعكم، فتاكم وشيخكم،

«وأحببت قصبتكم المرتجفة كسنديانتكم الجبارة الراسخة،

«ولكن وا أسفاه فإنّ قلبي الطافح بحبّكم قد حوّل قلوبكم عني،

«لأن في وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من القدح الصغير ولكنكم لا تقوون على شربها من النهر الفياض.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«إنكم تستطيعون أن تسمعوا صوت المحبة عندما تهمس في آذانكم،
«ولكنكم تصمون آذانكم عندما تصيح المحبة مهللة بأعلى صوتها.

«وعندما رأيتم أنّني قد أحببتكم جميعكم بالسويّة، تهكمتم قائلين: «ما أسهل انقياد قلبه، وما أبعد الفطنة عن مسالكه! إنّ محبّته هذه محبّة متسوّل جائع، قد تعوّد التقاط الفتات، ولو كان جالساً إلى موائد الملوك، بل هي محبة ضعيف حقير، لأن القوي لا يحب إلاّ الأقوياء».

«وعندما رأيتم أنني أحببتكم حبّاً مفرطاً قلتم: «إن محبته هذه محبة أعمى لا يميز بين جمال الواحد وبشاعة الآخر. بل هي محبة عديم الذوق، الذي يشرب الخل كأنّه يشرب الخمر. بل إنما هي محبة فضوليّ مدّعٍ، إذ أي غريب يستطيع أن يحبّنا كأبينا وأمّنا وأختنا وأخينا؟».

«وهذه أقوالكم وغيرها كثير، لأنّكم طالما أشرتم إليّ بأصابعكم في شوارع المدينة وساحاتها وقلتم بعضكم لبعض ساخرين:

«بربّكم انظروا الصغير الكبير، الذي لا يعبأ بالفصول والسنين، فهو عند الظهيرة يلاعب أولادنا، وعند المساء يجالس شيوخنا، مدعياً الحكمة والفهم».

«أما أنا فكنت أقول في قلبي: «لا بأس في ذلك، فإنّي سأحبهم أكثر فأكثر، ولكني سوف أسدل على محبتي ستاراً من البغض، وأستر عطفي بشديد كرهي. وسأتبرقع ببرقع من حديد، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحاً مدرعاً».

«وبعد ذلك ألقيت يداً ثقيلة على رضوضكم وجراحكم، وكما تعصف العاصفة في الليل رعدتُ في آذانكم،

«ومن على السطوح قد أذعتكم للملإ فرّيسيين مرائين خداعين، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة.

«قد لعنت قاصري النظر فيكم كما تلعن الخفافيش العمياء،

«وشبّهت الملتصقين بالأرض والأدنياء منكم بالمناجذ (جمع خلد) العادمة النفوس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبي الألسنة، ودعوت الصامت الساكن فيكم متحجر القلب والشفتين، وقلت في البسيط الساذج: «إنّ الأموات لا يملّون الموت».

«قد حكمت على الساعين وراء المعرفة البشرية منكم ومن أبنائكم كمجدفين على الروح القدس،

«وحكمت أيضاً على المأخوذين والمجذوبين بحبّ الأرواح وما وراء الطبيعة كمصطادي أشباح، يرمون شباكهم في مياه راكدة، ولا يصطادون سوى ظلالهم البليدة.

«كذا شهّرتكم بشفتي، ولكن قلبي، والدماء تنزف منه، كان يدعوكم بأرقّ الأسماء وأحلاها.

«أجل أيها الأصحاب والجيران، فإن المحبة قد خاطبتكم مسوقةً بسياط ذاتها،

«والكبرياء قد رقصت أمامكم متعفّرة بغبار خيبتها مذبوحة بآلامها،

«وتعطشي لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح،

«ولكن محبتي كانت تسألكم صفحاً وهي راكعة صامتة.

«ولكن إليكم المعجزة يا قوم:

«إن تستّري قد فتح عيونكم، وبغضي قد أيقظ قلوبكم.

«والآن أنتم تحبونني!

«إنكم لا تحبون سوى السيوف التي تطعن قلوبكم والسهام التي تخرق صدوركم،

«لأنّكم لا تتعزّون إلا بجراحكم، ولا تسكرون إلا بخمرة دمائكم.

«وكما يتجمّع الفراش حول اللهيب، ساعياً وراء حتفه، تجتمعون أنتم كل يوم في حديقتي، وبوجوه مرتفعة، وعيون شاخصة، تراقبونني وأنا أمزّق نسيج أيامكم، فتتهامسون فيما بينكم قائلين:

«إنه يبصر بنور الله، ويتكلم كأنبياء المتقدمين، فيحسر القناع عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفوسنا، ويحطم أقفال قلوبنا، وكما يعرف النسر مسالك الثعالب، يعرف هو أيضاً طرقنا ومسالكنا».

«بلى، فإنّني بالحقيقة أعرف طرقكم، ولكن كما يعرف النسر طرق فراخه، وإنني، بمسرة قلب، قد كشفت لكم سري، ولكنني لحاجة بي إلى قربكم، أتظاهر بالجفاء، وخوفاً مني على دنو قضاء محبتكم أقوم على حراسة سدود محبتي».

وبعد أن فرغ السابق من كلامه غطّى وجهه بيديه وبكى بكاءً مراً، لأنّه أدرك في قلبه أن المحبة المحتقرة في عريها، لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر في تسترها وتنكّرها، وخجل إذ ذاك من ذاته.

ثم رفع رأسه بغتةً، وكأنّه أفاق من نوم عميق، وبسط ذراعيه وقال: «ها قد ولّى الليل، ونحن أولاد الليل يجب أن نموت عندما يأتي الفجر متوكّئاً على التلال، وستبعث من رمادنا محبة أقوى من محبتنا، وستضحك في نور الشمس، وستكون خالدة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النبـــي

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النبي

وظلّ المصطفى، المختار الحبيب، الذي كان فجراً لذاته، يترقب عودة سفينته في مدينة أورفليس اثنتي عشرة سنة ليركبها عائداً إلى الجزيرة التي ولد فيها.

وفي السنة الثانية عشرة، في اليوم السابع من أيلول شهر الحصاد، صعد إلى قنة إحدى التلال القائمة وراء جدران المدينة وألقى نظرة عميقة إلى البحر، فرأى سفينته تمخر عباب البحر مغمورة بالضباب.

فاختلج قلبه في أعماقه، وطارت روحه فوق البحر فرحاً، فأغمض عينيه. ثم صلّى في سكون نفسه.

* * *

غير أنّه ما هبط عن التلة حتى فاجأته كآبة صمّاء، فقال في قلبه:

كيف أنصرف من هذه المدينة بسلام، وأسير في البحر من غير كآبة؟ كلاّ! إنّني لن أبرح هذه الأرض حتى تسيل الدماء من جراح روحي.

فقد كانت أيام كآبتي طويلة ضمن جدرانها، وأطول منها كانت ليالي وحدتي وانفرادي، ومن ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم في قلبه؟

كثيرةٌ هي أجزاء روحي التي فرقتها في هذه الشوارع، وكثير هم أبناء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حنيني الذين يمشون عراة بين التلال، فكيف أفارقهم من غير أن أثقل كاهلي وأضغط روحي!

فليس ما أفارقه بالثوب الذي أنزعه عني اليوم ثم أرتديه غداً، بل هو بشرة أمزّقها بيدي.

كلا، ولس فكراً أخلفه ورائي، بل هو قلب جمّلته مجاعتي وجعله عطشي رقيقاً خفوقاً.

* * *

بيد أنّني لا أستطيع أن أبطئ في سفري.

فإن البحر الذي يدعو كل الأشياء إليه يستدعيني، فيجب عليّ أن أركب سفينتي وأسير في الحال إلى قلبه.

ولو أقمت الليلة ههنا، فإنّني، مع أن ساعات الليل ملتهبة، أجمد وأتبلور وأتقيّد بقيود الأرض الثقيلة.

وإنني أودّ لو يتاح لي أن يصحبني جميع الذين ههنا. ولكن أنّى يكون لي ذلك؟

فإن الصوت لا يستطيع أن يحمل اللسان والشفتين اللواتي تسلحن بجناحيه. ولذلك فهو وحده يخترق حجب الفضاء.

أجل، والنسر، يا صاح، لا يحمل عشه بل يطير وحده محلقاً في عنان السماء.

وعندما بلغ المصطفى سفح التلة التفت ثانية إلى البحر فرأى سفينته تدنو من المرفإ، وأبناء بلاده يروحون ويجيئون على مقدّمتها.

فهتف لهم من صميم فؤاده وقال:

يا أبناء أمتي الأولى، أيها الراكبون متون الأمواج المذللون مدّها وجزرها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

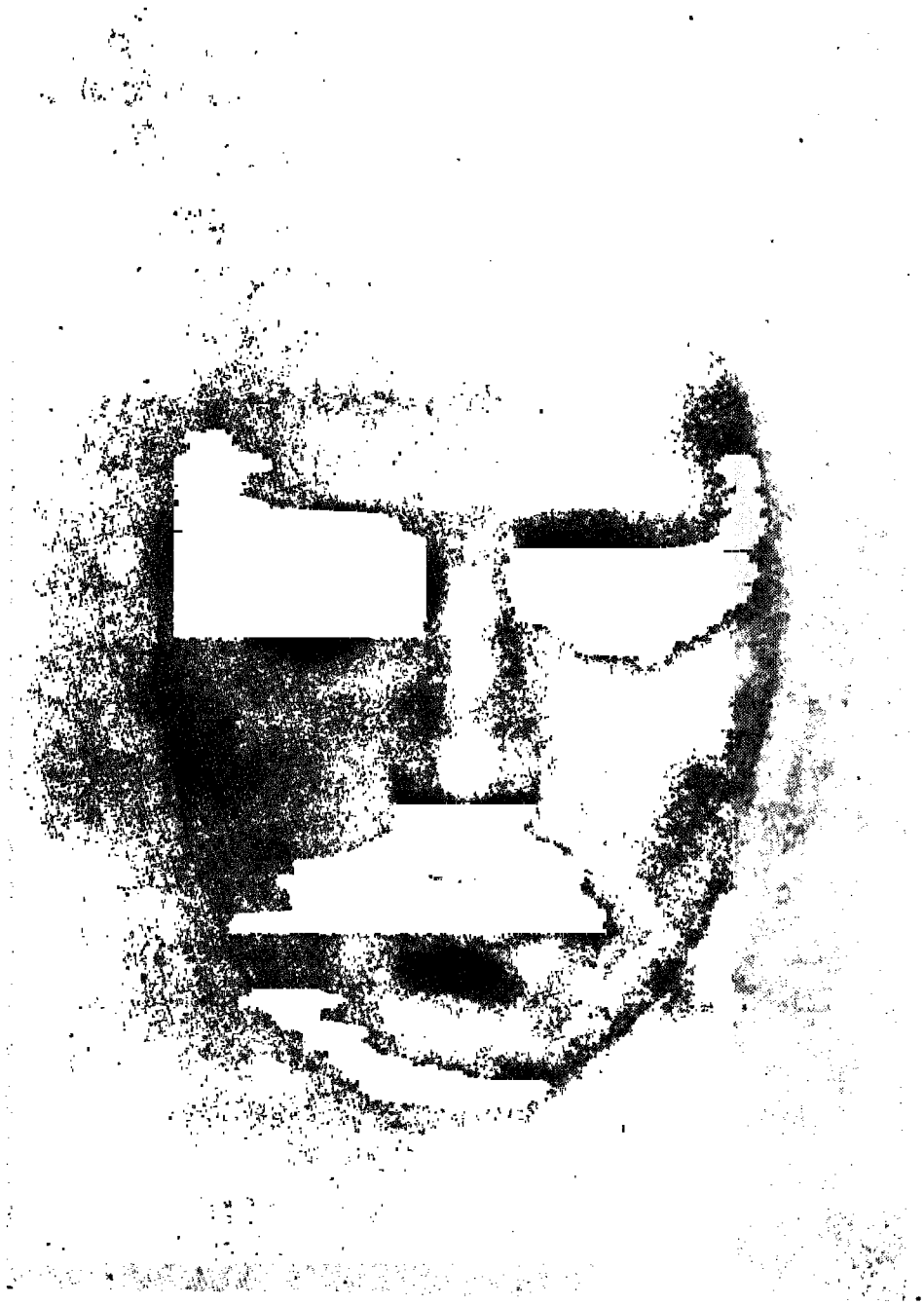

«وجه النبي»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كم من مرة أبحرتم في أحلامي! وها قد أتيتم ورأيتكم في يقظتي التي هي أعمق أحلامي.

إنني على أتم الأهبة للإبحار، وفي أعماقي شوق عظيم يترقب هبوب الريح على القلوع بفارغ الصبر.

ولكنني أودّ أن أتنفّس مرةً واحدةً في هذا الجوّ الهادئ وأن أبعث بنظرة عطف واحدة إلى الوراء.

وحينئذٍ أقف معكم، ملّاحاً بين الملّاحين.

أما أنت أيها البحر العظيم، أيها الأم الهاجعة.

أنت أيها البحر العظيم الذي فيك وحدك يجد النهر والجدول سلامهما وحريتهما.

فاعلم أن هذا الجدول لن يدور إلا دورة واحدة بعد، ولن يسمع أحد خريره على هذا المعبر بعد اليوم، وحينئذ آتي إليك، نقطة طليقة إلى أوقيانوس طليق.

* * *

وفيما هو ماشٍ رأى عن بعد رجالاً ونساء يتركون حقولهم وكرومهم ويهرولون إلى أبواب المدينة.

وسمعهم يصرخون بعضهم ببعض من حقل إلى حقل مردّدين اسمه وكلٌّ منهم يحدّث رفيقه بقدوم سفينته.

* * *

فقال في نفسه:

أيكون يوم الفراق يوم الاجتماع؟

أم يجري على الأفواه أن مسائي كان فجراً ليْ؟

وماذا يجدر بي أن أقدم للفلاح الذي ترك سكته في نصف تلمه، وللكرّام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي أوقف دولاب معصرته؟

أيتحوّل قلبي إلى شجرة كثيرة الأثمار فأقطف منها وأعطيهم؟

أم تفيض رغباتي كالينبوع فأملأ كؤوسهم؟

هل أنا قيثارة فتلامسني يد القدير، أم أنا مزمار فتمرّ بي أنفاسه؟

أجل، إنّني هائم أنشد السكينة، ولكن ما هو الكنز الذي وجدته في السكينة لكي أوزعه بطمأنينة؟

وإن كان هذا اليوم يوم حصادي ففي أية حقول بذرت بذاري، وفي أي فصل من الفصول المجهولة كان ذلك؟

وإن كانت هذه هي الساعة التي يجدر بي أن أرفع فيها مصباحي واضعاً إياه على منارتي، فإن النور الذي يتصاعد منه ليس منّي.

لأنّني سأرفع مصباحي فارغاً مظلماً.

ولكن حارس الليل سيملأه زيتاً، وسينيره أيضاً.

قال هذا معبراً عنه بالألفاظ. ولكن كثيراً مثل هذا حفظه في قلبه من غير أن يعلنه، لأنّه هو نفسه لم يقدر أن يوضح سرّه العميق.

* * *

وعندما دخل المدينة استقبله الشعب بأسره، وكانوا يهتفون له مرحبين به بصوت واحد.

فوقفه شيوخ المدينة وقالوا له:

بربك لا تفارقنا هكذا سريعاً.

فقد كنت ظهيرةً في شفقنا،

وقد أوحى شبابك الأحلام في نفوسنا.

وأنت لست بالغريب بيننا، كلاّ، ولا أنت بالضيف بل أنت ولدنا وقسيمُ أرواحنا الحبيب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلا تجعل عيوننا تشتاق إلى رؤية وجهك.

ثم قال له الكهّان والكاهنات:

لا تأذن لأمواج البحر أن تفصل بيننا، فتجعل الأعوام التي قضيتها بيننا نسياً منسيّاً.

فقد كنت فينا روحاً محيية، وكان خيالك نوراً يشرق على وجوهنا.

قد تعشّقتك قلوبنا، وعلقتك أرواحنا،

ولكن محبتنا تقنّعت بحجب الصمت، فلم نستطع أن نعبّر عنها.

بيد أنها تصرخ إليك الآن بأعلى صوتها، وتمزّق حجبها بيديها لكي تظهر لك حقيقتها.

فإن المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق.

* * *

ثم جاء إليه كثيرون متوسلين متضرعين. فلم يردّ على أحد جواباً. ولكنه كان يحني رأسه، وكان الواقفون حوله ينظرون عبراته تتساقط بغزارة على وجنتيه وصدره.

وظل يمشي مع الشعب حتى وصلوا إلى الساحة الكبرى أمام الهيكل.

المطـــرة

وحدث إذ ذاك أن امرأة عرّافة خرجت من المقدس، اسمها المِطرة.

فنظر إليها نظرة ملؤها الحب والحنان، لأنها كانت أول من سعى إليه وآمن به مع أنه لم يكن له إلا ليلة وضحاها في مدينتهم.

فحيته باحترام وقالت له:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يا نبيّ الله، قد طالما كنت تسعى وراء ضالّتك المنشودة، مفتشاً عن سفينتك التي كانت بعيدة عنك.

وها قد وصلت سفينتك، ولم يبقَ من بد لسفرك.

عظيم هو حنينك إلى أرض أحلامك وتذكاراتك ومواطن الفائقات من رغباتك، ولذلك فإن محبتنا لا تقيدك، وحاجتنا إليك لا تُمسك بك.

ولكننا واحدة نسألك قبل أن تفارقنا:
أن تخطب فينا وتعطينا من الحقّ الذي عندك.

ونحن نعطيه لأولادنا، وأولادنا لأولادهم وحفدتهم، وهكذا يثبت كلامك فينا على ممر العصور.

ففي وحدتك كنت ترقب أيامنا، وفي يقظتك كنت تصغي إلى بكائنا وضحكنا في غفلتنا.

لذلك نضرع إليك أن تكشف مكنوناتنا لذواتنا، وتخبرنا بكلّ ما أُظهر لك من أسرار الحياة من المهد إلى اللحد.

فأجاب قائلا:
يا أبناء أورفليس، بماذا أحدثكم إن لم أظهر لكم ما يختلج في نفوسكم وتتحرك به ضمائركم حتى في هذه الساعة؟.

المحبـــة

حينئذٍ قالت له المطرة: هات لنا خطبة في المحبة.

فرفع رأسه ونظر إلى الشعب نظرة محبة وحنان، فصمتوا جميعهم خاشعين. فقال لهم بصوت عظيم:
إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«المحبة»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإن كانت مسالكها صعبة متحدّرة.
وإذا ضمتكم بجناحيها فأطيعوها،
وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها
وإذا خاطبتكم المحبة فصدّقوها،

وإن عطل صوتها أحلامكم وبددها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعاً صفصفاً.

* * *

لأنّه كما أن المحبة تكللكم، فهي أيضاً تصلبكم.

وكما تعمل على نموّكم، هكذا تعلّمكم وتستأصل الفاسد منكم.

وكما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس،

هكذا تنحدر إلى جذورها الملتصقة بالتراب وتهزها في سكينة الليل.

* * *

المحبة تضمّكم إلى قلبها كأغمار الحنطة.

وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم.

وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم.

وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج.

وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا،
ثم تعدّكم لنارها المقدسة، لكي تصيروا خبزاً مقدّساً يقرّب على مائدة الرب المقدّسة.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل هذا تصنعه المحبة بكم لكي تدركوا أسرار قلوبكم، فتصبحوا بهذا الإدراك جزءاً من قلب الحياة.

غير أنكم إذا خفتم، وقصرتم سعيكم على الطمأنينة واللذة في المحبة:

فالأجدر بكم أن تستروا عريكم وتخرجوا من بيدر المحبة إلى العالم البعيد حيثما تضحكون، ولكن ليس كل ضحككم، وتبكون، ولكن ليس كلّ ما في مآقيكم من الدموع.

المحبة لا تعطي إلا نفسها، ولا تأخذ إلا من نفسها.

المحبة لا تملك شيئاً، ولا تريد أن يملكها أحد:
لأن المحبة مكتفية بالمحبة.

* * *

أما أنت إذا أحببت فلا تقل: «إن الله في قلبي»، بل قل بالأحرى: «أنا في قلب الله».

ولا يخطر لك البتّة أنّك تستطيع أن تتسلط على مسالك المحبة، لأن المحبة إن رأت فيك استحقاقاً لنعمتها، تتسلط هي على مسالكك.

والمحبة لا رغبة لها إلا في أن تكمل نفسها.

ولكن إذا أحببت، وكان لا بدّ من أن تكون لك رغبات خاصة بك، فلتكن هذه رغباتك:

أن تذوب وتكون كجدول متدفّق يشنف آذان الليل بأنغامه.

أن تخبر الآلام التي في العطف المتناهي.

أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة في حبة قلبك، وأن تنزف دماؤك وأنت راضٍ مغتبط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تنهض عند الفجر بقلب مجنح خفوق، فتؤدي واجب الشكر ملتمساً يوم محبة آخر.

أن تستريح عند الظهيرة وتناجي نفسك بوجد المحبة.
أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكراً:

فتنام حينئذٍ والصلاة لأجل من أحببت تتردّد في قلبك، وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك.

الزواج

ثم قالت له المِطرة ثانية: وما رأيك في الزواج أيها المعلم؟
فأجاب قائلاً:
قد ولدتم معاً، وستظلون معاً إلى الأبد.

وستكونون معاً عندما تبدّد أيامكم أجنحة الموت البيضاء.

أجل، وستكونون معاً حتى في سكون تذكارات الله.

ولكن فليكن بين وجودكم معاً فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض، حتى ترقص أرياح السموات فيما بينكم.

أحبوا بعضكم بعضاً؛ ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطئ نفوسكم.

ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه، ولكن لا تشربوا من كأس واحدة.

أعطوا من خبزكم كل واحد لرفيقه ولكن لا تأكلوا من الرغيف الواحد.

غنوا وارقصوا معاً، وكونوا فرحين أبداً، ولكن فليكن كل منكم وحده،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الزواج»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أن أوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحده ولكنها جميعاً تخرج نغماً واحداً.

* * *

ليعطِ كل منكم قلبه لرفيقه، ولكن حذارِ أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ،

لأن يد الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم.

قفوا معاً ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيراً: لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلين،

والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما في ظلّ رفيقتها.

الأبنـــاء

ثم دنت منه امرأة تحمل طفلها على ذراعيها وقالت له: هات حدثنا عن الأولاد.

فقال:

إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم.

إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم.

ومع أنّهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم.

أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم.

وفي طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم.

ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الأبنـاء»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهي تقطن في مسكن الغد، الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولا في أحلامكم.

وأن لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم.

ولكنكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم.

لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلدّ لها الإقامة في منزل الأمس.

أنتم الأقواس وأولادكم سهام حيّة قد رمت بها الحياة عن أقواسكم.

فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية، فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى.

لذلك فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرّة والغبطة.

لأنه كما يحبّ السهم الذي يطير من قوسه، هكذا يحبّ القوس التي تثبت بين يديه.

العطـاء

ثم قال له رجل غني: هات حدّثنا عن العطاء.

فأجاب قائلاً:

إنك إذا أعطيت فإنما تعطي القليل من ثروتك.

ولكن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءاً من ذاتك، لأنّه أي شيء هي ثروتك؟

أليست مادة فانية تخزنها في خزائنك، وتحافظ عليها جهدك خوفاً من أن تحتاج إليها غداً؟

والغد. ماذا يستطيع الغد أن يقدم للكلب البالغ الفطنة الذي يطمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العظام في الرمال غير المطروقة وهو يتبع الحجّاج إلى المدينة المقدسة؟

أوَليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها؟

أوَليس الظمأ الشديد للماء عندما تكون بئر الظامئ ملآنة هو العطش الذي لا تروى غلته.

* * *

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عندهم وهم يعطونه لأجل الشهرة، ورغبتهم الخفيّة في الشهرة الباطلة تضيع الفائدة من عطاياهم.

ومنهم من يملكون قليلاً ويعطونه بأسره.

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة. هؤلاء لا تفرغ صناديقهم وخزائنهم ممتلئة أبداً.

ومن الناس من يعطون بفرح، وفرحهم مكافأة لهم.

ومنهم من يعطون بألم، وألمهم معموديّة لهم.

وهنالك الذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم في عطائهم، ولا يتطلّبون فرحاً، ولا يرغبون في إذاعة فضائلهم، هؤلاء يعطون مما عندهم كما يعطي الريحان عبيره العطر في ذلك الوادي.

بمثل أيدي هؤلاء يتكلم الله، ومن خلال عيونهم يبتسم على الأرض.

جميل أن تعطي من يسألك ما هو في حاجة إليه،

ولكن أجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت تعرف حاجته، فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون فرحه بسعيه إلى من يتقبل عطاياه والاهتداء إليه أعظم منه بالعطاء نفسه.

وهل في ثروتك شيء تقدر أن تستبقيه لنفسك؟

فإن كل ما تملكه اليوم سيتفرق ولا شكّ يوماً ما،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«العطاء»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذلك أعطِ منه الآن، ليكون فصل العطاء من فصول حياتك أنت دون ورثتك.

وقد طالما سمعتك تقول متبجّحاً: «إنّني أحبّ أن أعطي، ولكن المستحقين فقط».

فهل نسيت، يا صاحِ، أن الأشجار في بستانك لا تقول قولك، ومثلها القطعان في مراعيك؟

فهي تعطي لكي تحيا، لأنها إذا لم تعطِ عرّضت حياتها للتهلكة.

الحق أقول لك، إن الرجل الذي استحقّ أن يقتبل عطية الحياة ويتمتّع بأيامه ولياليه، هو مستحقّ لكل شيء منك.

والذي استحق أن يشرب من أوقيانوس الحياة يستحقّ أن يملأ كأسه من جدولك الصغير.

لأنّه أي صحراء أعظم من الصحراء ذات الجرأة والجسارة على قبول العطيّة بما فيها من الفضل والمنّة؟

وأنت، من أنت، حتى ان الناس يجب أن يمزقوا صدورهم ويحسروا القناع عن شهامتهم وعزة نفوسم لكي ترى جدارتهم لعطائك عارية وأنفتهم مجرّدة عن الحياء؟

فانظر أولاً هل أنت جدير بأن تكون معطاء، وآلة العطاء.

لأن الحياة هي التي تعطي للحياة، في حين أنّك، وأنت الفخور بأن قد صدر العطاء منك، لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على عطائك.

* * *

أما أنتم، الذين يتناولون العطاء والإحسان ـ وكلكم منهم ـ فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل، لئلا تضعوا بأيديكم نيراً ثقيل الحمل على رقابكم ورقاب الذين أعطوكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل فلتكن عطايا المعطي أجنحة ترتفعون بها معه:

لأنّكم إذا أكثرتم من الشعور بما أنتم عليه من الدين، فإنّكم بذلك تظهرون الشكّ والريبة في أريحيّة المحسن الذي أُمّه الأرض السخية، وأبوه الربّ الكريم.

الغـــذاء

وبعد ذلك جاء إليه فندقيّ شيخ وقال له: هات حدّثنا عن المأكل والمشرب.

فأجاب قائلاً:

أودّ لو أنّك تقدر أن تعيش على عبير الأرض.

تكتفي بالنور كنباتات الهواء.

غير أنّك مضطر أن تقتل لتعيش، وأن تسرق المولود الصغير من حضن أمّه مختطفاً حليبها لتبريد ظمإك.

لذلك فليكن عملك مظهراً من مظاهر العبادة.

ولتكن مائدتك مذبحاً تقرّب عليه التقادم النقية الطاهرة من الحقول والسهول ضحيّة لما هو أكثر منها نقاوة في أعماق الإنسان.

* * *

وإذا ذبحت حيواناً فقل له في قلبك:

«إن القوة التي أمرت بذبحك، ستذبحني نظيرك.

«وعندما تحين ساعتي سأحترق مثلك.

«لأن الشريعة التي أسلمتك إلى يديّ ستسلمني إلى يدي من هو أقوى مني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وليس دمك ودمي سوى عصارة قد أُعدّت منذ الأزل غذاء لشجرة السماء».

* * *

وإذا نهشت تفاحةً بأسنانك فقل لها في قلبك:
«إن بذوركِ ستعيش في جسدي،
«والبراعم التي ستخرج منها في الغد ستزهر في قلبي،
«وسيتصاعد عبيركِ مع أنفاسي،
«وسأفرح معكِ في جميع الفصول».

* * *

وإذا قطفت العنب من كرومك في أيام الخريف، وحملته إلى المعصرة، فقل له في قلبك:

«أنا كرمة مثلك، وستجمع أثماري وتحمل إلى المعصرة، وسيضعونني كالخمر الجديدة في زقاق جديدة».

وعندما تستقي الخمرة من زقاقها في أيام الشتاء، أنشد في قلبك أنشودة لكل كأس تشربها.

وليكن لك من أناشيدك أجمل التذكارات لأيام الخريف وللكرمة والمعصرة.

العمـــل

ثم جاء إليه فلاّح وقال له: هات حدّثنا عن العمل.
فأجاب قائلاً:
إنّكم تشتغلون لكي تجاروا الأرض ونفس الأرض في سيرها.
لأن الكسول غريب عن فصول الأرض، وهائم لا يسير في موكب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحياة، السائرة بعظمة وجلال في فضاء اللانهاية إلى غير المتناهي.

* * *

فإذا اشتغلت فما أنت سوى مزمار تختلج في قلبك مناجاة الأيام فتتحول إلى موسيقى خالدة.

ومن منكم يودّ أن يكون قصبةً خرساء صماء، وجميع ما حولها يترنّم معاً بأنغام متفقة؟

قد طالما أخبرتم أن العمل لعنة؛ والشغل نكبة ومصيبة.

أما أنا فأقول لكم إنكم بالعمل تحقّقون جزءاً من حلم الأرض البعيد، جزءاً خصص لكم عند ميلاد ذلك الحلم.

فإذا واظبتم على العمل النافع تفتحون قلوبكم بالحقيقة لمحبة الحياة.

لأن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها، وتدنيه من أبعد أسرارها.

* * *

ولكن إذا كنتم وأنتم في الآلام تدعون الولادة كآبة، ودعامة الجسد لعنة مكتوبة على جباهكم، فإنّني الحقّ أقول لكم إنّه ما من شيء يستطيع أن يمحو هذه الكتابة ويغسل جباهكم من آثارها سوى سعيكم وجهادكم.

وقد ورثتم عن جدودكم القول إن الحياة ظلمة، فرحتم في عهد مشقتكم تردّدون ما قاله قبلكم جدودكم المزعجون.

فالحق أقول لكم إن الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة إذا لم ترافقها الحركة.

والحركة تكون عمياء لا بركة فيها إن لم ترافقها المعرفة.

والمعرفة تكون عميقة سقيمة إن لم يرافقها العمل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعمل يكون باطلاً وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبة، لأنكم إذا اشتغلتم بمحبة فإنما تربطون أنفسكم وأفرادكم بعضها ببعض، ويرتبط كل واحد منكم بربه.

* * *

وما هو العمل المقرون بالمحبة؟

هو أن تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك مفكراً أن حبيبك سيرتدي ذلك الرداء.

هو أن تبني البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك وإخلاصك مفكّراً أن حبيبك سيقطن في ذلك البيت.

هو أن تبذر البذور بدقّة وعناية، وتجمع الحصاد بفرح ولذّة كأنّك تجمعه لكي يقدّم على مائدة حبيبك.

هو أن تضع في كل عمل من أعمالك نسمة من روحك،
وتثق بأن جميع الأموات الأطهار محيطون بك يراقبون ويتأملون.

* * *

وكثيراً ما كنت أسمعكم تناجون أنفسكم، كأنّكم في نوم عميق، قائلين: «إن الذي يشتغل بنحت الرخام فيوجد مثالاً محسوساً لنفسه في الحجر الأصمّ هو أشرف من الفلاّح الذي يحرث الأرض.

«والذي يستعير من قوس قزح ألواناً يحوّل بها قطعة النسيج الحقيرة إلى صورة إنسان، هو أفضل من الإسكاف الذي يصنع الأحذية لأقدامنا».

ولكنني أقول لكم، لا في نوم الليل، بل في يقظة الظهيرة البالغة، إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التي تخاطب بها أحقر أعشاب الأرض.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعظيم العظيم ذلك الذي يحوّل هينمة الرّيح إلى أنشودة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة.

* * *

أجل، إنّ العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة.

فإن لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجراً ملولاً، فالأجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة.

لأنّك إذا خبزت خبزاً وأنت لا تجد لك لذة في عملك، فإنما أنت تخبز علقماً لا يشبع سوى نصف مجاعة الإنسان.

وإذا تذمرت وأنت تعصر عنبك، فإن تذمرك يدس لك سمّاً في الخمرة المستقطرة من ذلك العصير.

وإن أنشدت أناشيد الملائكة، ولم تحب أن تكون منشداً، فإنما أنت تصمّ آذان الناس بأنغامك عن الإصغاء إلى أناشيد الليل وأناشيد النهار.

الفرح والترح

ثم قالت له امرأة: هات لنا شيئاً عن الفرح والترح.

فأجاب قائلاً:

إن فرحكم هو ترحكم ساخراً.

والبئر الواحدة التي تستقون منها ماء ضحككم قد طالما ملئت بسخين دموعكم.

وهل في الإمكان أن يكون الحال على غير هذا المنوال؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الفرح والترح»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكلما أعمل وحش الحزن أنيابه في أجسادكم، تضاعف الفرح في أعماق قلوبكم.

لأنه أليست الكأس التي تحفظ خمرتكم هي نفس الكأس التي أُحرقت في أتون الخزّاف قبل أن بلغت إليكم؟

أم ليست القيثارة التي تزيد في طمأنينة أرواحكم هي نفس الخشب الذي قطع بالمدى والفؤوس؟

فإذا فرحتم فتأمّلوا مليّاً في أعماق قلوبكم تجدوا أن ما أحزنكم قبلاً يفرحكم الآن.

وإذا أحاطت بكم جيوش الكآبة فارجعوا ببصائركم ثانية إلى أعماق قلوبكم وتأملوا جيداً، تروا هنالك بالحقيقة أنّكم تبكون لما كنتم تعتقدون أنّه غاية مسراتكم على الأرض.

* * *

ويخيّل إليّ أن فريقاً منكم يقول: «إن الفرح أعظم من الترح»، فيعارضه فريق آخر قائلاً: «كلا، بل الترح أعظم من الفرح».

أما أنا فالحقّ أقول لكم: إنهما توأمان لا ينفصلان، يأتيان معاً ويذهبان معاً، فإذا جلس أحدهما منفرداً إلى مائدتكم، فلا يغرب عن أذهانكم أن رفيقه يكون حينئذٍ مضطجعاً على أسرّتكم.

* * *

أجل، إنّكم بالحقيقة معلّقون ككفتي الميزان بين ترحكم وفرحكم.

وأنتم بينهما متحركون أبداً، ولا تقف حركتكم إلا إذا كنتم فارغين في أعماقكم.

فإذا جاء أمين خزائن الحياة يرفعكم لكي يزن ذهبه وفضته، فلا ترتفع كفة فرحكم ولا ترجح كفة ترحكم، بل تثبتان على حالة واحدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حينئذٍ دنا منه بنّاء وقال له: هات حدّثنا عن البيوت.

فأجاب وقال:

ابنِ من خيالك مظلّة في الصحراء قبل أن تبني بيتاً في داخل أسوار المدينة.

لأنه كما أن لك بيتاً مقبلاً في شفق حياتك، كذلك للغريب الهائم فيك بيت كبيتك.

إن بيتك هو جسدك الأكبر.

ينمو في حرارة الشمس وينام في سكينة الليل. وكثيراً ما ترافق نومه الأحلام. أفلا يحلم بيتك؟ وهل يترك الحلم المدينة ويسير إلى الغابة أم إلى رأس التلة؟

أوّاه لو أستطيع أن أجمع بيوتكم بيدي، فأبدّدها في الأحراج والرياض كما يبذر الزارع زرعه في الحقول.

أودّ لو كانت الأودية شوارع لكم، ومسالك التلال الخضراء أزقّة تطرقها أقدامكم عوضاً عن أزقتكم وشوارعكم القذرة، ويا ليتكم تنشدون بعضكم بعضاً بين الدوالي والكروم ثم تعودون حاملين عطر الأرض في طيات أثوابكم.

ولكن هذه جميعها تمنيات لم تحن ساعتها بعد.

لأن آباءكم وجدودكم إذ خافوا عليكم الضياع والضلال جمعوكم معاً لكي تكونوا قريبين بعضكم من بعض. وسيبقى هذا الخوف مجمعاً لكم زمناً بعد. وستظلّ أسوار المدينة فاصلة مواقدكم عن حقولكم ولكن إلى حين.

* * *

بربكم أخبروني، يا أبناء أورفليس، ماذا تملكون في هذه البيوت؟ وأي شيء تحتفظون به في داخل هذه الأبواب الموصدة؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل عندكم السلام، وهو القوة الصامتة التي تظهر ذاتكم الشديدة العزم المستترة في أعماقكم؟

هل عندكم التذكارات، وهي القناطر اللامعة التي تصل قنن الفكر الإنساني بعضها ببعض؟

هل عندكم الجمال، الذي يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة إلى الجبل المقدس؟

بربكم أخبروني، هل عندكم كل هذا في بيوتكم؟

أم عندكم الرفاهية فقط، والتحرق للرفاهية الممزوج بالطمع، الرفاهية التي تدخل البيت ضيفاً، ثم لا تلبث أن تصير مضيفاً، فسيِّداً عاتياً عنيفاً؟

ثم تتحوّل إلى رائض جبار يتقلّد السوط بيمينه والكلّاب بيساره متخذاً رغباتكم الفضلى ألعوبة يتلهّى بها.

ومع أن بنان هذه الرفاهية حريري الملمس فإن قلبها حديدي صلد.

فهي تهدئ من حدّتكم لكي تناموا، ثم تقف أمام أسرّتكم هازئة بكم وبجلال أجسادكم.

تضحك من حواسكم المدركة، وتطرح بها بين الأشواك كأنها أوعية سهلة الانكسار.

لأن التحرق للرفاهية ينحر أهواء النفس في كبدها فيرديها قتيلة، ثم يسير في جنازتها فاغراً شدقيه مرغياً مزبداً.

* * *

أما أنتم، يا أبناء الفضاء، العائشين في الراحة والنعيم وغير المستريحين، فإنّكم لن تؤخذوا بالأشراك ولن يقدر رائض على ترويضكم.

لأن بيتكم لن يكون مرساة ولكنه سيكون سارية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلا، ولن يكون غشاءً برّاقاً تغطى به الجراح، بل جفناً تحفظ به العين.

وأنتم لن تطووا أجنحتكم لكي تستطيعوا أن تدخلوا من الأبواب، ولن تحنوا رؤوسكم لئلا تنطح السقف، كلّا، ولن تخشوا أن تتنفسوا خوفاً من أن تقوّض أساسات الجدران وتسقط على الأرض.

أجل، ولن تقطنوا في القبور التي بناها أبناء الموت لأبناء الحياة.

ومع كل ما يزين منازلكم من الجلال والجمال فإنها لن تستطيع أن تحتفظ بسرّكم أو أن تؤوي حنينكم:

لأن غير المحدود فيكم يقطن في منزل السماء، الذي بوّابته سحابة الصباح ونوافذه سكون الليل وأناشيده.

الثيـــاب

ثم قال له الحائك: هات حدثنا عن الثياب.

فأجاب قائلاً:

إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم، ولكنها لا تستر غير الجميل.

ومع أنكم تنشدون بثيابكم حرية التستر والانفراد، فإنها تقيّدكم وتستعبدكم.

ويا ليت في وسعكم أن تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضاً عن ثياب مصانعكم،

لأن أنفاس الحياة في أشعة الشمس، ويد الحياة تسير مع مجاري الرياح.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول بعضكم: «إن الريح الشمالية دون غيرها قد حاكت الثياب التي نلبسها».

وأنا أقول لكم: «نعم، إن الريح الشماليّة قد فعلت ذلك، ولكن العار كان نولاً لها؛ ولدونة العضلات كانت لها خيطاً.

وعندما فرغت من عملها ضحكت منكم وهي تعصف في قلب الغاب.

ولكن لا يغرب عن أذهانكم أن الحشمة هي ترسٌ منيعٌ متين للوقاية من عيون المدنسين.

فإذا زال المدنسون من الوجود، أفلا تصير الحشمة قيداً للفكر وتلويثاً له في حمأة العبودية؟

لذلك ضعوا نصب عيونكم أن الأرض تبتهج بملامسة أقدامكم العارية، والرياح تتوق إلى ملاعبة شعوركم المسترسلة.

البيع والشـراء

ثم دنا منه تاجر وقال له: هات حدّثنا عن البيع والشراء.

فأجاب وقال:

إن الأرض تقدّم لكم ثمارها، ولو عرفتم كيف تملأون أيديكم من خيراتها لما خبرتم طعم الحاجة في حياتكم.

لأنكم بغير مبادلة عطايا الأرض لن تجدوا وفراً من الرزق ولن يشبع جشعكم.

فيجدر بكم أن تتموا هذه المقايضة بروح المحبة والعدالة، وإلاّ فإنها تؤدي بالبعض منكم إلى الشراهة وبغيرهم إلى الطمع والمجاعة.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا ذهبتم إلى ساحة المدينة أيها الدائبون في خدمة البحر والحقول والكروم، فاجتمعوا بالحاكة والخزّافين وجامعي الحنوط والطيوب.

واضرعوا في تلك الساعة إلى الروح المتسلطة على الأرض، أن تحلّ عليكم وتبارك مقاييسكم وموازينكم التي تعيّنون بها مقدار ما تجري عليه مقايضاتكم.

ولا تـأذنـوا لـذوي الأيـدي العقيمـة مـن ذوي البطـالـة أن يشـتركوا فـي معاملاتكم، لأنه لا شيء لهم يتاجرون به سوى أقوالهم التي يبيعونها لكم بأعمالكم.

بل قولوا لأمثال هؤلاء:

«تعالوا معنا إلى الحقل، أو فاذهبوا مع أولادنا إلى البحر وألقوا هنالك شباككم،

«لأن الأرض والبحر يجودان عليكم، متى عملتم، كما يجودان علينا».

* * *

وإن جاءكم المغنون والراقصون والعازفون،

فاشتروا من عطاياهم ولا ترفضوهم،

لأنهم يجمعون الأثمار والعطور نظيركم، ومع أن ما يقدمونه لكم مصنوع من مادة الأحلام، فإنّه أجمل كساء وأفضل غذاء لنفوسكم.

* * *

وقبل أن تبرحوا ساحة المدينة انظروا ألا ينصرف أحد منها فارغ اليدين.

لأن الروح السيدة في الأرض لا تنام بطمأنينة وسلام على تموجات الرياح حتى تشاهد بعينيها أن الصغير فيكم قد نال كالكبير بينكم كل ما هو في حاجة إليه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجرائم والعقوبات

حينئذٍ وقف أحد قضاة المدينة وقال له: «هات لنا خطبةً في الجرائم والعقوبات.

فأجاب وقال:

عندما تسير أرواحكم هائمة فوق الرياح،

وتمسون منفردين، ليس لكم من يقيكم طوارئ السوء، حينئذٍ تقترفون الاثم ضد غيركم وضد أنفسكم.

ولأجل ذلك الاثم الذي تقترفونه يجب أن تقرعوا برهةً وتنتظروا على بوابة القدوس.

* * *

فإن ذاتكم الإلهية بحر عظيم،

كانت نقيّة منذ الأزل وستظلّ نقيّة إلى آخر الدهور.

وهي كالأثير لا ترفع إلاّ ذوي الأجنحة.

أجل، إن ذاتكم الإلهية كالشمس،

لا تعرف طرق المناجذ[1] ولا تعبأ بأوكار الأفاعي.

غير أنها لا تقطن وحيدةً في كيانكم.

لأن كثيراً منكم لا يزال بشراً، وكثيراً غيره لم يصر بشراً بعد، بل هو مسخ لا صورة له يسير غافلاً في الضباب وهو ينشد عهد يقظته.

فلا أودّ أن أُحدّثكم الآن إلاّ عن هذا الإنسان فيكم.

لأن هذا الإنسان ـ دون ذاتكم الإلهية ودون المسخ الهائم في الضباب ـ، هو الذي يعرف الجرائم والعقوبات على الجرائم في كيانكم.

* * *

---

(١) مناجذ: جمع خلد من غير لفظه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف إثماً كأنّه ليس منكم بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم.

ولكنني الحقّ أقول لكم: كما أن القديس والبار لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفيعة في كل منكم،

هكذا الشرّير والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا إلى أدنى من الذات الدنيئة التي في كل واحد منكم.

وكما أن ورقة الشجرة الصغيرة لا تستطيع أن تحوّل لونها من الخضرة إلى الصفرة إلا بإرادة الشجرة ومعرفتها الكامنة في أعماقها،

هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم أن يقترف إثماً بدون إرادتكم الخفيّة ومعرفتكم التي في قلوبكم.

فإنكم تسيرون معاً في موكب واحد إلى ذاتكم الإلهية.

أنتم الطريق وأنتم المطرقون.

فإذا عثر أحد منكم فإنما تكون عثرته عبرة للقادمين وراءه فيجتنبون الحجر الذي عثر به.

أجل، وتكون عثرته توبيخاً للذين يسيرون أمامه بأقدام سريعة ثابتة لأنّهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقه.

* * *

وإليكم يا أبناء أورفليس هذه الكلمة التي، وإن حلّت ثقيلة على قلوبكم، فهي الحقيقة بعينها:

إن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل،

وليس المسروق بلا لوم في سرقته.

لا يستطيع البار أن يتبرأ من أعمال الشرير.

ولا الطاهر النقي اليدين بريء الذمة من قذارة المدنسين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه،
كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الأثقال التي كان يجب أن يحملها الأبرياء وغير المحكومين.

لذلك لا تستطيعون أن تضعوا حدّاً يفصل بين الأشرار والصالحين أو الأبرياء والمذنبين،
لأنهم يقفون معاً أمام وجه الشمس، كما أن الخيط الأبيض والخيط الأسود ينسجان معاً في نول واحد.

فإذا انقطع الخيط الأسود ينظر الحائك إلى النسيج بأسره ثم يرجع إلى نوله يفحصه وينظفه.

* * *

لذلك إذا جاء أحدكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة، فليزن أولاً قلب زوجها بالموازين، وليقس نفسه بالمقاييس.

وكل من شاء أن يلطم المجرم بيمينه يجدر به أولاً أن ينظر ببصيرة ذهنه إلى روح من أوقع الجرم عليه.

وإن رغب أحد منكم في أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة فلينظر أولاً إلى أعماق جذورها.

وهو لا شكّ واجد أن جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة، وغير المثمرة، كلها مشتبكة معاً في قلب الأرض الصامت.

أما أنتم أيها القضاة الذين يريدون أن يكونوا أبراراً، أي نوع من الأحكام تصدرون على الرجل الأمين بجسده السارق بروحه؟

أم أيّ عقاب تنزلون بذلك الذي يقتل الجسد مرّة ولكن الناس يقتلون روحه ألف مرة؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكيف تطاردون الرجل الذي مع أنّه خدّاع ظالم بأعماله، فهو موجع القلب، ذليل، مهان بروحه؟.

* * *

أجل، كيف تستطيعون أن تعاقبوا الذين لهم من توبيخ ضمائرهم، وهو أعظم من جرائمهم، أكبر قصاص على الأرض؟

أليس توبيخ الضمير هو نفسه العدالة التي تتوخاها الشريعة التي تتظاهرون بخدمتها؟

فأنتم لا تستطيعون أن تسكبوا بلسم توبيخ الضمير في قلوب الأبرياء كما أنكم لا تقدرون أن تنزعوه من قلوب الأشقياء.

فهو يأتي لذاته في ساعة من الليل لا ننتظرها، داعياً الناس إلى النهوض من غفلتهم، والتأمل بحياتهم وما فيها من التعديات والمخالفات.

وأنتم، أيها الراغبون في سبر غور العدالة، كيف تقدرون أن تدركوا كنهها إن لم تنظروا إلى جميع الأعمال بعين اليقظة في النور الكامل؟

في مثل هذا النور تعرفون أن الرجل المنتصب والرجل الساقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الإلهية.

وأن حجر الزاوية في الهيكل ليس بأعظم من الحجر الذي في أسفل أساساته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرائـــع

ثم قال له مشترع: وماذا تعتقد بشرائعنا أيها المعلم؟

فأجاب قائلاً:

إنّكم تستلذون أن تضعوا شرائع لأنفسكم،

بيد أنّكم تستلذون بالأكثر أن تكسروها وتتعدوا فرائضها

لذلك أنتم كالأولاد الذين يلعبون على الشاطئ - يبنون أبراجاً عظيمة من الرمل بصبر وثبات، ثم لا يلبثون أن يهدموها ضاحكين صاخبين.

فعندما تبنون أبراجكم الرملية يأتي البحر برمال جديدة إلى الشاطئ.

وعندما تهدمون أبراجكم يضحك البحر منكم في نفسه، لأن البحر يضحك من الأبرياء أبداً.

* * *

ولكن ماذا أقول في من ليست الحياة بحراً في عقيدتهم بل ليست الشرائع التي تسنها حكمة الإنسان البالغة أبراجاً من الرمال فحسب.

أولئك الذين يحسبون أن الحياة صخرة صلدة، وأن الشريعة إزميل حاد يأخذونه بأيديهم لكي ينحتوا هذه الصخرة على صورتهم ومثالهم؟

وماذا أقول في المُقعدين الذين يكرهون الراقصين؟

وفي الثور الذي يحب نيره ويتهم الوعل والإبل والظبي أنها حيوانات متمردة ناشزة؟

وفي الأفعى العتيقة الأيام التي لا تستطيع أن تخلع جلدها، وللذلك تنبري متهمة جميع الحيوانات بالعري وقلة الحياء؟

وفي ذلك الذي يسبق غيره إلى وليمة العرس، وعندما يملأ جوفه من الأطعمة ويبلغ حدّه من النهم والشراهة يترك الوليمة ويذهب في طريقه قائلاً إن جميع الولائم مخالفة للناموس وجميع الذين يجتمعون إليها متعدّو الشريعة؟

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماذا أقول في أمثال هؤلاء؟ إنهم كجميع الناس يقفون في أشعة الشمس، ولكنهم يولون الشمس ظهورهم.

فهم لذلك لا ينظرون سوى ظلالهم، وظلالهم هي عند التحقيق شرائعهم المقدسة.

وهل الشمس في اعتقادهم سوى منشإ الظلال؟

وهل اعترافهم بالشريعة سوى أنّهم ينحنون ويطأطئون رؤوسهم لكي يستقصوا ظلالهم على الأرض؟

أما أنتم، الذين يمشون وهم يحدقون إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة، فهل في الأرض من صورة تستطيع أن تستوقفكم هنيهة؟

وأنتم، المسافرين مع الريح، أية صفحة من الصفحات الدالة على مجاري الرياح تقدر أن تقودكم في مسالككم؟

وما هي الشريعة البشرية التي تفيدكم إذا كنتم لم تحطموا نيركم على باب سجن من سجون الإنسان؟

وأية شرائع ترهبون إذا كنتم ترقصون ولكنكم لا تعثرون بقيد من قيود العالم الحديدية؟

ومن هو الرجل الذي يستطيع أن يأتي بكم إلى المحاكمة إذا مزّقتم أثوابكم ولكنكم لم تضعوها في طريق أحد من الناس؟.

* * *

أجل يا أبناء أورفليس، إنكم تستطيعون أن تخمدوا صوت الطبل، وتحلوا أوتار القيثارة، ولكن مَن مِن أبناء الإنسان يستطيع أن يمنع قبّرة السماء عن الغناء؟.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحريـــة

ثم قال له خطيب: هات حدّثنا عن الحرية.

فأجاب قائلاً:

قد طالما رأيتكم ساجدين على ركبكم أمام أبواب المدينة وإلى جوانب المواقد تعبدون حريتكم.

وأنتم بذلك أشبه بالعبيد الذين يتذللون أمام سيدهم العسوف الجبار يمدحونه وينشدون له وهو يعمل السيف في رقابهم.

نعم، وفي غابة الهيكل، وظلّ القلعة، كثيراً ما رأيت أشدّكم حرية يحمل حريته كنير ثقيل لعنقه وغلّ متين ليديه ورجليه.

رأيت كل ذلك فذاب قلبي في أعماق صدري، ونزفت دماؤه، لأنّكم لا تستطيعون أن تصيروا أحراراً حتى تتحول رغبتكم في السعي وراء الحريّة إلى سلاح تتسلحون به، وتنقطعوا عن التحدث بالحرية كغايتكم ومحجّتكم.

* * *

إنّكم تصيرون أحراراً بالحقيقة إذا لم تكن أيامكم بلا عمل تعملونه ولياليكم بلا حاجة تفكرون بها، أو كآبة تتألمون لذكراها.

بل تكونون أحراراً عندما تمنطق هموم الحياة وأعمالها أحقاءكم بمنطقة الجهاد والعمل، وتثقل كاهلكم بالمصاعب والمصائب، ولكنكم تنهضون من تحت أثقالها عراةً طليقين.

لأنكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق أيامكم ولياليكم إذا لم تحطّموا السلاسل التي أنتم أنفسكم في فجر إدراككم قيدتم بها ساعة ظهيرتكم الحرّة؟

ألا إن ما تسمونه حرية إنّما هو بالحقيقة أشدّ هذه السلاسل قوّة، وإن كانت حلقاته تلمع في نور الشمس وتخطف أبصاركم.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وماذا يجدر بكم طرحه عنكم لكي تصيروا أحراراً سوى كسر صغيرة رثّة في ذاتكم البالية؟

فإن كانت هذه الكسر شريعة جائرة وجب نسخها، لأنها شريعة سطّرتها يمينكم وحفرتها على جبينكم.

بيد أنكم لا تستطيعون أن تمحوها عن جباهكم بإحراق كتب الشريعة التي في دواوينكم، كلا، ولا يتم لكم ذلك بغسل جباه قضاتكم، ولو سكبتم عليها كل ما في البحار من المياه.

وإن كانت طاغية تودون خلعه عن عرشه فانظروا أولاً إن كان عرشه القائم في أعماقكم قد تهدّم.

لأنّه كيف يستطيع طاغية أن يحكم الأحرار المفتخرين، ما لم يكن الطغيان أساساً لحرّيتهم والعار قاعدة لكبريائهم؟

وإن كانت همّاً ترغبون في التخلّص منه فإن ذلك الهمّ إنما أنتم اخترتموه ولم يضعه أحد عليكم.

وإن كانت خوفاً تريدون طرده عنكم فإن جرثومة هذا الخوف مغروسة في صميم قلوبكم وليست في يدي من تخافون.

الحق أقول لكم، إن جميع الأشياء تتحرك في كيانكم متعانقة على الدوام عناقاً نصفياً: كل ما تشتهون وما تخافون، ما تتعشقون وما تستكرهون، ما تسعون وراءه وما تهربون منه.

جميع هذه الرغبات تتحرك فيكم كالأنوار والظلال.

فإذا اضمحلّ الظلّ ولم يبق له من أثر، أمسى النور المتلألئ ظلاً لنور آخر سواه.

وهكذا الحال في حريتكم، إذا حلت قيودها أمست هي نفسها قيداً لحرية أعظم منها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقل والعاطفة

ثم طلبت إليه العرافة ثانية قائلة: هات حدّثنا عن العقل والهوى.

فأجاب وقال:

كثيراً ما تكون نفوسكم ميداناً تسير فيه عقولكم ومداركم حرباً عواناً على أهوائكم وشهواتكم.

وإنني أودّ أن أكون صانع سلام في نفوسكم،
فأحوّل ما فيكم من تنافر وخصام إلى وحدة وسلام.
ولكن أنّى يكون لي ذلك، إذا لم تصيروا أنتم صانعي سلام لنفوسكم ومحبين جميع عناصركم على السواء؟.

* * *

إن العقل والهوى هما سكان[1] النفس وشراعها وهي سائرة في بحر العالم.

فإذا انكسر السكان أو تمزّق الشراع فإن سفينة النفس لا تستطيع أن تتابع سيرها، بل ترغم على ملاطمة الأمواج يمنة ويسرة حتى تقذف بكم إلى مكان أمين تحفظون به في وسط البحر.

لأن العقل إذا استقلّ بالسلطان على الجسد قيّد أهواءه. ولكن الأهواء إذا لم يرافقها العقل كانت لهيباً يتأجج ليفني نفسه.

فاجعل نفسك تسمو بعقلك إلى مستوى أهوائك، وحينئذٍ ترى منها ما يطربك ويشرح لك صدرك.

وليكن لك من عقلك دليل وقائد لأهوائك لكي تعيش أهواؤك في كلّ

---

(١) سكان السفينة: ما يعرف بالدفة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوم بعد موتها وتنهض كالعنقاء[1] متسامية فوق رمادها.

وأرغب إليكم أن تعنوا بالعقل والهوى عنايتكم بطيفين عزيزين عليكم.

فإنكم، ولا شك، لا تكرمون الواحد أكثر من الثاني، لأن الذي يعتني بالواحد ويهمل الآخر يخسر محبة الاثنين وثقتهما.

* * *

وإذا جلستم في ظلال الحور الوارفة، بين التلال الجميلة، تشاطرون الحقول والمروج البعيدة سلامها وسكينتها وصفاءها، فقولوا حينئذٍ في قلوبكم: «إن الله يستريح في العقل».

وعندما تعصف العاصفة، وتزعزع الرياح أصول الأشجار في الأحراج، وتعلن الرعود والبروق عظمة السماوات، فقولوا حينئذٍ في أعماق قلوبكم متهيبين خاشعين: «إن الله يتحرك في الأهواء».

وما دمتم نسمةً من روح الله، وورقة في حرجه، فأنتم أيضاً يجب أن تستريحوا في العقل وتتحركوا في الأهواء.

الألم

ثم نهضت من بين الجمع امرأة وقالت له: هات حدثنا عن الألم.

فأجاب وقال:

إن ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم.

وكما أن القشرة الصلدة التي تحجب الثمرة يجب أن تتحطّم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس.

هكذا أنتم أيضاً يجب أن تحطم الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معنى

(١) العنقاء: مؤنث أعنق، وهو طائر معروف باسمه مجهول بجسمه، وفي الخرافات المصرية أنه طائر مقدس كان يأتي من بلاد العرب مرة في كل سنة إلى هليوبولس فيحرق نفسه على المذبح ثم لا يلبث أن ينهض من وسط الرماد المحترق حياً جميلاً كما كان. ولذلك كان عندهم رمزاً إلى الخلود.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الألم ماء محيي»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحياة. لأنكم لو استطعتم أن تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقّها من التأمّل والدهشة، لما كنتم ترون آلامكم أقلّ غرابة من أفراحكم.

بل كنتم تقبلون فصول قلوبكم كما قد قبلتم في غابر حياتكم الفصول التي مرت في حقولكم.

وكنتم ترقبون وتتأملون بهدوء وسكون شتاء أحزانكم وآلامكم.

* * *

أنتم مخيرون في الكثير من آلامكم.

وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التي بواسطتها يشفي الطبيب الحكيم الساهر في أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة.

لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم، وثقوا بما يصفه لكم من الدواء الشافي. وتناولوا جرعته المرّة بسكينة وطمأنينة.

لأن يمينـه وإن بدت ثقيلة قاسية، فهي مقودة بيمين غير المنظور اللطيفة. والكأس التي يقدمها إليكم، وإن أحرقت شفاهكم، فهي مصنوعة من الطين الذي جبلته يدا الفخاري الأزلي بدموعه المقدّسة.

معرفة النفس

ثم قال له رجل: هات حدّثنا عن معرفة النفس.

فأجاب قائلاً:

إن قلوبكم تعرف في السكينة أسرار الأيام والليالي.

ولكن آذانكم تتشوق لسماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم.

غير أنكم تودون لو تعرفون بالألفاظ والعبارات ما تعرفونه بالأفكار والتأملات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتوقون إلى أن تلمسوا بأصابعكم جسد أحلامكم العاري.

* * *

وحسن أنّكم تتوقون إلى جميع ذلك.

فإن الينبوع الكامن في أعماق نفوسكم سيتفجّر يوماً ما ويجري منحدراً إلى البحر.

والكنز المطمور في أعماقكم غير المتناهية سينقب في ساعة لا تعلمونها وتفتح أبوابه أمام عيونكم.

ولكن حذار أن تأخذوا معكم موازينكم لكي تزنوا بها كنزكم غير المعروف.

كلاّ، ولا تسبروا غور معرفتكم بقياس محدود أو حبل مشدود. لأن الذات بحر لا وزن ولا قياس له.

* * *

أجل، ولا تقل في ذاتك: «قد وجدت الحق» بل قل بالأحرى: «قد وجدت حقاً».

ولا تقل: «قد وجدت طريق النفس» بل قل بالأولى: «قد رأيت النفس تمشي على طريقي».

لأنّ النفس تمشي على جميع المسالك والطرق.

النفس لا تمشي على حبل أو خيط، كلاّ ولا هي تنمو كالقصبة.

النفس تطوي ذاتها، كالبشنين[1] ذي البتلات التي لا يحصى عديدها.

---

(١) البشنين: نبات يقوم على ساق ولا ورق له، ويسميه المصريون عرائس النيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التعليم

ثم قال له معلم: هات لنا كلمة في التعليم.

فقال: ما متن رجل يستطيع أن يعلن لكم شيئاً غير ما هو مستقر في فجر معرفتكم وأنتم غافلون عنه.

أمّا المعلم الذي يسير في ظل الهيكل محاطاً بأتباعه ومريديه، فهو لا يعطي شيئاً من حكمته، بل إنما يعطي من إيمانه وعطفه ومحبته.

لأنّه إذا كان بالحقيقة حكيماً فإنه لا يأمركم أن تدخلوا بيت حكمته، بل يقودكم بالأحرى إلى عتبة فكركم وحكمتكم.

فإن الفلكي يستطيع أن يقصّ عليكم شيئاً من معرفته لنظام السماء، ولكنه لا يقدر أن يعطيكم معرفته.

والموسيقي يستطيع أن ينشدكم أجمل ما في العالم من الأناشيد والأنغام، ولكنه لا يستطيع أن يمنحكم الأذن التي تضبط النظام في النغم ولا الصوت الذي يوجد الألفة في الألحان.

والرياضي النابغ في ضبط الأرقام يستطيع أن يوضح لكم عدد الموازين والمقاييس وخصائص كل منها، ولكنه لا يستطيع أن يمنحكم معرفته.

لأن الوحي الذي يهبط على رجل ما لا يعير جناحيه لغيره.

وكما أن لكلّ منكم مقاماً منفرداً في معرفة الله إياه، هكذا يجب عليه أن يكون منفرداً في معرفته لله وفي إدراكه لأسرار الأرض.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصداقة

ثم قال له شاب: هاتِ حدّثنا عن الصداقة.

فأجاب وقال:

إن صديقك هو كفاية حاجاتك.

هو حقلك الذي تزرعه بالمحبة وتحصده بالشكر.

هو مائدتك وموقدك.

لأنك تأتي إليه جائعاً، وتسعى وراءه مستدفئاً.

* * *

فإذا أوضح لك صديق فكره فلا تخش أن تصرّح بما في فكرك من النفي أو أن تحتفظ بما في ذهنك من الايجاب.

لأن الجبل يبدو للمتسلق له أكثر وضوحاً وكبراً من السهل البعيد.

وإذا صمت صديقك ولم يتكلم فلا ينقطع قلبك عن الإصغاء إلى صوت قلبه.

لأن الصداقة لا تحتاج إلى الألفاظ والعبارات في إنماء جميع الأفكار والرغبات والتمنيات التي يشترك الأصدقاء بفرح عظيم في قطف ثمارها اليانعات.

وإن فارقت صديقك فلا تحزن على فراقه.

لأن ما تتعشقه فيه، أكثر من كل شيء سواه، ربما يكون في حين غيابه أوضح في عيني محبتك منه في حين حضوره.

ولا يكن لكم في الصداقة من غاية ترجونها غير أن تزيدوا في عمق نفوسكم.

لأن المحبة التي لا رجاء لها، سوى كشف الغطاء عن أسرارها، ليست محبة، بل هي شبكة تلقى في بحر الحياة ولا تمسك إلاّ غير النافع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

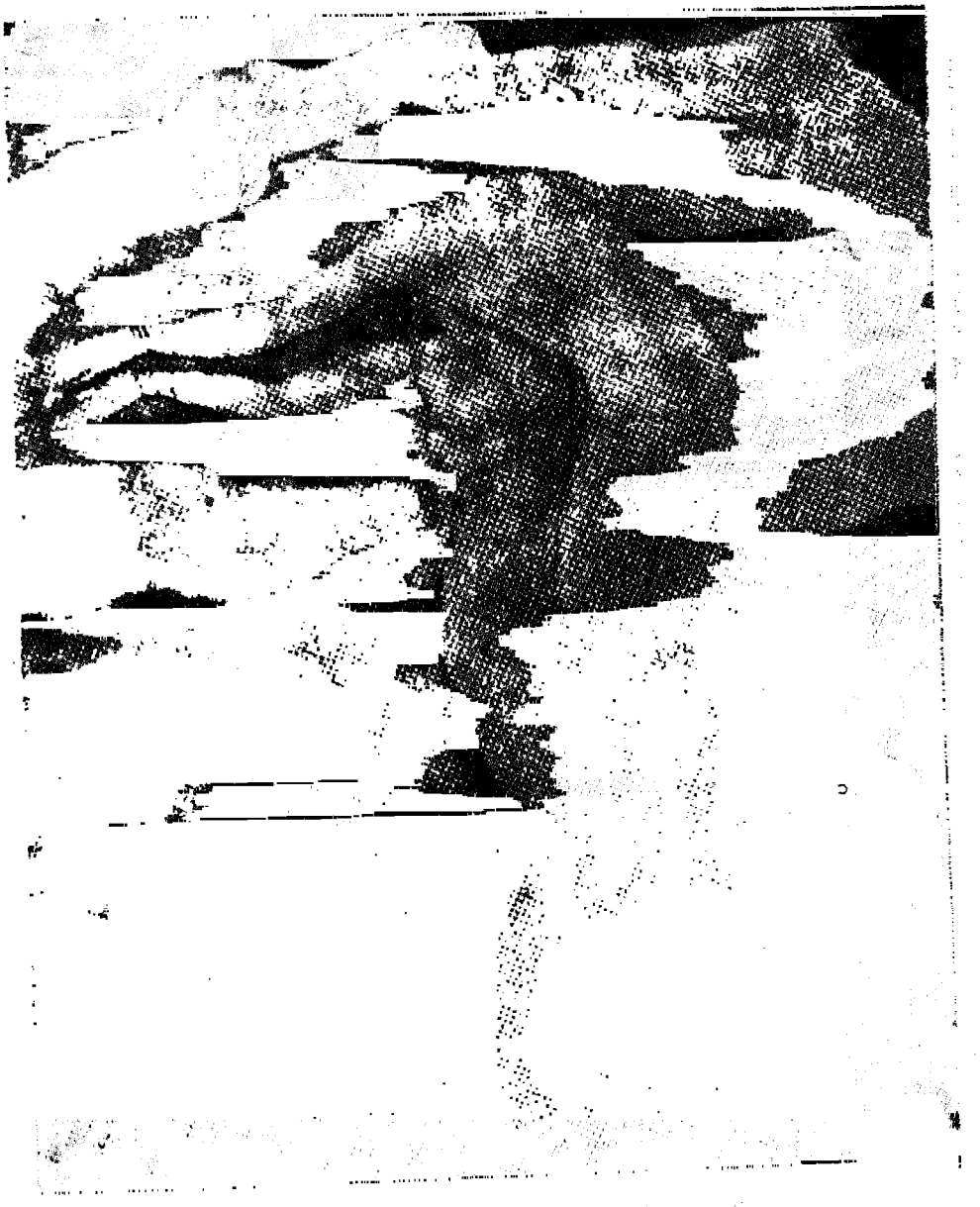

«الصداقة»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليكن أفضل ما عندك لصديقك.

فإن كان يجدر به أن يعرف جزر حياتك.

فالأجدر بك أيضاً أن تظهر له مدّها.

لأنّه ماذا ترتجي من الصديق الذي تسعى إليه لتقضي معه ساعاتك المعدودة في هذا الوجود؟.

فاسع بالأحرى إلى الصديق الذي يحيي أيامك ولياليك.

لأنّ له وحده قد أعطي أن يكمل حاجاتك، لا لفراغك ويبوستك. وليكن ملاك الأفراح واللذات المتبادلة مرفوعاً فوق حلاوة الصداقة.

لأن القلب يجد صباحه في الندى العالق بالصغيرات، فينتعش ويستعيد قوته.

الحديث

ثم قال له عالم: هاتِ حدّثنا عن الكلام.

فأجاب وقال:

إنّكم تتكلمون عندما توصد دونكم أبواب السلام مع أفكاركم.

وعندما تعجزون عن السكنى في وحدة قلوبكم. تقطنون في شفاهكم والصوت يلهبكم ويسليكم.

وفي الكثير من كلامكم يكاد فكركم يقضي ألماً وكآبة.

لأن الفكر طائر من طيور الفضاء. يبسط جناحيه في قفص الألفاظ ولكنه لا يستطيع أن يحلق طائراً.

* * *

إن بينكم قوماً يقصدون الثرثار المهذار، ضجراً من الوحدة والانفراد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأن سكينة الوحدة تبسط أمام عيونهم صورة واضحة لذواتهم العارية يرتعدون لدى رؤيتها فيهربون منها.

ومنكم الذين يتكلمون. ولكنهم عن غير معرفة. وبدون سابق قصد. يظهرون حقيقة لا يدركونها هم أنفسهم.

ومنكم الذين أودع الحقّ قلوبهم. ولكنهم يأبون أن يلبسوه حلة اللفظ وفي أحضان هؤلاء تقطن الروح في هدوء وسكون.

* * *

فإذا رأيت صديقك على جادة الطريق، أو جمعتك به ساحة المدينة، فدع الروح التي فيك تحرك شفتيك وتدير لسانك.

افسح المجال للصوت الذي في أعماق صوتك فيخاطب أذن أذنه.

لأن نفسه تحتفظ بسرّ قلبك كما يتذكر فمه طعم الخمرة الطيبة، وإن نسي الفكر لونها وتحطمت الكأس التي حملتها.

الزمان

ثم قال له فلكي: أيها المعلم، ماذا تعتقد بالزمان؟.

فأجابه قائلاً:

أنت تريد أن تقيس الزمان غير المحدود، الذي لا قياس له.

وتودّ أن تطبق سلوكك وتعين مسالك روحك على مقتضى الساعات والفصول.

بل أنت تريد أن تجعل الزمان جدولاً تجلس إلى حافته وتراقب انسجام مياهه وتصغي إلى خريرها.

* * *

بيد أن غير المقيّد فيك بالزمان يعرف حقيقة أن الحياة لا تعرف حدود الزمان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأن ليس أمس سوى ذكرى اليوم، وليس الغد سوى حلم اليوم.

وأن القوة التي تترنم وتتأمّل فيك لا تزال قاطنة ضمن حدود تلك الثانية الأولى التي فرّقت الكواكب في الفضاء.

وهل بينكم رجل لا يشعر أن قوته على المحبة فائقة الحدود؟.

بل من هو الذي لا يشعر بتلك المحبة، غير المحدودة، المحصورة في صميم كيانه، ولا ينتقل من فكر محبة إلى فكر محبة، ومن أعمال محبة إلى أعمال محبة غيرها؟.

والزمان، أليس الزمان، كالمحبة، لا ينقسم ولا يستقصى؟.

* * *

ولكن إذا شئتم أن تقسموا الزمان إلى فصول مختلفة في أفكاركم، فاجعلوا كل فصل من فصوله يحيط بجميع الفصول الأخرى.

واجعلو الحاضر يعانق الماضي بالتذكارات، والمستقبل بالحنين والتشوقات.

الخير والشر

ثم قال له أحد شيوخ المدينة: هات حدّثنا عن الخير والشر.

فأجاب قائلاً:

إنني أستطيع أن أحدثكم عن الخير، لا الشر الذي فيكم.

لأنّه أليس الشر هو بعينه الخير المتألم آلاماً مبرحة من تعطشه ومجاعته؟.

فإني الحق أقول لكم، إن الخير إذا جاع سعى إلى الطعام ولو في الكهوف المظلمة، وإن عطش فإنّه يشرب حتى من المياه الراكدة المنتنة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنت صالح، يا صاح، إذا كنت واحداً مع ذاتك.

وإذا لم تكُ واحداً مع ذاتك فأنت لست بالشرير.

لأن البيت المنقسم على ذاته ليس مغارة للصوص، ولكنه بيت منقسم على ذاته لا أكثر ولا أقلّ.

والسفينة التي تضيع سكانها وتهيم في البحار بين الجزائر تحدق بها الأخطار من كل جهة ولكنها لا تغرق إلى قعر البحر.

أنت صالح، يا صاح، إذا جاهدت لكي تعطي الناس من ذاتك، ولكنك لست بالشرير إذا سعيت وراء منفعة نفسك.

لأنك في سعيك وراء منفعة نفسك تشبه جذر الشجرة الذي يريق دموعه على الأرض ثم يمتص الحليب من ثدييها.

الحق أقول لك، إن الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذر: «كن مثلي ناضجاً، جميلا، جواداً، يبذل كل ما فيه لأجل غيره.»

لأن العطاء حاجة من حاجات الثمرة لا تعيش بدونها، كما أن الأخذ حاجة من حاجات الجذر لا يحيا بغيرها.

* * *

أنت صالح، يا صاح، إذا كنت تبلغ كمال يقظتك في خطابك.

بيد أنّك لست بالشرير إذا نمت وكان لسانك يهذر من غير مرمى. لأن الكلام، وإن كان مجلبة للعثرات، لا بدّ أن يشدد لساناً ضعيفاً.

* * *

أنت صالح، يا صاح، إذا كنت تسير إلى محجتك راسخ العزم ثابت الخُطى.

غير أنك لست بالشرير إذا كنت تمشي إلى محجتك متلكئاً لأن العرج أنفسهم لا يسيرون إلى الوراء.

ولكنك، وأنت صحيح القدم قوي الجسد، أنظر ألا تعرج أمام العرج وأنت تحسب ذلك رقة وظرفاً!.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنت صالح بطرق عديدة، يا صاح. وإذا لم تكن صالحاً فإنك لست بالشرير بل أنت كسول متراخٍ.

ويا ليت الظباء تستطيع أن تعلّم السلاحف البطيئة السرعة والرشاقة!.

* * *

أجل، إن الخير الذي فيك إنما هو في حنينك إلى ذاتك الجبّارة، وهذا الحنين فيكم جميعكم.

غير أنّه يشبه في البعض منكم سيلاً جارفاً يجري بقوة منحدراً إلى البحر، فيحمل معه أسرار التلال والأودية وأناشيد الأحراج والجنان.

وهو في غيرهم أشبه بجدول صغير يسير في منبسط من الأرض يريق ماءه في الزوايا والمنعرجات، ولذلك يطول به الزمان قبل أن يصل إلى الشاطئ.

ولكن لا يقل ذو الحنين الكثير إلى ذي الحنين القليل: «لماذا أنت كسيح بطيء؟».

لأن الصالح الصالح لا يسأل العراة: «أين ثيابكم؟» ولا الغرباء: «أين منازلكم؟».

الصلاة

ثم قالت له الكاهنة: هات حدثنا عن الصلاة.

فأجاب وقال:.

إنك تصلين في ضيقتك وفي حاجتك.

ولكن حبذا لو أنك تصلين في كمال فرحك ووفرة خيراتكِ؟.

وهل الصلاة غير اتساع ذاتك في الأثير الحي؟.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا كنت تتعزّين في أن تسكبي كأس ظلمتك في الفضاء، فإنّك ولا شكّ تفرحين في أن تسكبي فيه فجر فؤادك.

وإذا كنت لا تستطيعين أن تمسكي عن البكاء عندما تدعوك نفسك إلى الصلاة، فالأجدر بنفسك أن تنخسك بمنخس حاد مرة بعد مرة، على رغم الدموع المتساقطة على وجنتيك، لكي تأتي إلى الصلاة فرحة باسمة.

وإذا صليت فإنت ترتفعين بروحك لكي تجتمعي في تلك الساعة بأرواح المصلين، الذين لا تستطيعين أن تجتمعي بهم بغير الصلاة.

لذلك فلتكن زيارتك لذلك الهيكل غير المنظور مدعاةً للهيام السماوي والشركة الروحية السعيدة.

لأنك إذا دخلت الهيكل ولا غاية لك سوى السؤال فإنّك لن تنالي شيئاً. وإن دخلت الهيكل لكي تظهري وفرة اتضاعك وخشوعك فإنك لن تجدي رفعة.

بل لو جئت الهيكل وأنت ترجين أن تلتمسي خيراً لغيرك من الناس فإنّك لن تجابي إلى سؤلك.

لأنّه يكفيك أن تدخلي الهيكل من غير أن يراك أحد.

* * *

لا أستطيع أن أعلمك الصلاة بالألفاظ.

لأن الله لا يصغي إلى كلماتك ما لم يضعها تعالى اسمه على شفتيك وينطق بها بلسانك.

ولا أقدر أن أعلمك صلاة البحار والأحراج والجبال، بيد أنك، وأنت ابنة الجبال والأحراج والبحار، تستطيعين أن تجدي هذه الصلاة محفورة على صفحات قلبك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الصلاة»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا أصغيت في سكينة الليل سمعت الجبال والبحار والأحراج؛ تصلي بهدوء وخشوع:

«ربنا وإلهنا، يا ذاتنا المجنحة.
«إننا بإرادتك نرى،
وبرغبتك نرغب ونشتهي.
«بقدرتك تحوّل لياليا، وهي لك، إلى أيام هي لك أيضاً.
«إننا لا نستطيع أن نلتمس منك حاجة،
«لأنك تعرف حاجاتنا قبل ن تولد في أعماقنا.
«أنت حاجتنا، وكلما زدتنا من ذاتك زدتنا من كل شيء».

اللذة

حينئذ دنا منه ناسك يزور المدينة مرةً في السنة، وقال له: هات حدثنا عن اللذة

فأجاب وقال:

اللذة أنشودة الحرية،
ولكنها ليست حرية بذاتها.
اللذة زهرة رغباتكم،
ولكنها ليست ثمرة لها.
اللذة عمق ينشد علواً،
ولكن لا هي بالعمق ولا هي بالعلو.
اللذة جناحٌ قد أفلت من قفصه،
ولكنها ليست فضاء حراً طليقاً.

أجل. إن اللذة بالحقيقة أنشودة الحرية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإنّه ليطربني أن تترنّموا بها في أعماق قلوبكم، ولكنني لا آذن لكم أن تستسلموا بقلوبكم للفناء.

* * *

إن فريقاً من أحداثكم يسعون وراء اللذة سعيهم وراء كل شيء، ولذلك يحكم عليهم بالقصاص والتأديب.

أما أنا فلا أدينهم، ولا أحكم عليهم، ولكنني أسألهم أن يفتشوا وينقبوا.

لأنهم سيجدون اللذة في تفتيشهم، ولكنهم لن يجدوها وحدها فقط:

فإن لها سبع شقيقات، أحقرهن أوفر جمالاً منها.

وأنتم ألم تسمعوا بذلك الرجل الذي كان يحفر الأرض لكي يستخرج الجذور من أعماقها فوجد كنزاً عظيماً؟.

* * *

وفريق آخر من شيوخكم يتذكرون لذات شبابهم آسفين، كأنما هي جرائم اقترفوها في أوقات السكر والجهالة.

ولكن الأسف هو بالحقيقة غمامة تغمّ الفكر ولا تؤدبه.

ولذلك يجدر بهم أن يتذكروا لذاته بالحمد والثناء كما يتذكرون حصاد الصيف.

ولكن إذا كان الأسف يعزيهم فلا بأس أن يتعزوا به.

وهنالك فريق ثالث ممن ليسوا بالأحداث لكي يجاهدوا مفتشين عن لذات جديدة. ولا بالشيوخ لكي يتذكروا لذات شبابهم.

ولكنهم لشدة خوفهم من عناء الجهاد في التفتيش والألم في التذكارات، يعرضون عن جميع اللذات، لئلاّ يهملوا الروح أو يجدفوا عليها.

غير أن لهم من هذا الإعراض بعينه لذة لأنفسهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولذلك فهم أيضاً يجدون كنزاً لذواتهم مع أنهم يحفرون لأجل الجذور بأيدٍ مرتعشة.

ولكن هل لك أن تخبرني وأنت الناسك الحكيم، من هو الذي يستطيع أن يكدّر على الروح صفوها؟.

أيستطيع البلبل أن يعكر صفو سكينة الليل، أم الحباحب نور السماء؟ وهل يقدر لهيب نارك أو دخانها أن يثقل كاهل الريح؟.

أم هل تعتقد أن الروح بركة هادئة وفي استطاعتك كلما خطر لك أن تزعج هدوءها بعصاك؟.

كلما أنكرت على ذاتك التمتع بلذة ما تغلق بيديك على تلك اللـذة في مستودعات كيانك.

ومن يدري هل تعود اللذة التي ترفضها اليوم فتترقب عودتك إليها في الغد؟.

لأن جسدك يعرف حاجاته الضرورية وميراثه الحقيقي. فلا يستطيع أحد أن يخدعه.

أجل، إن جسدك هو قيثارة نفسك،

وأنت وحدك تستطيع أن تخرج منها أنغاماً فتانة أو أصواتاً مشوشة مضطربة.

* * *

ولعلك تسأل في قلبك قائلاً: «كيف نستطيع أن نميز بين الصالح والشرير من اللذات؟».

فاذهب إلى الحقول والبساتين وهنالك تتعلم أن لذة النحلة قائمة في امتصاص العسل من الزهرة.

ولكن لذة الزهرة أيضاً تقوم بتقديم عسلها للنحلة.

والنحلة تعتقد أن الزهرة ينبوع الحياة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والزهرة تؤمن بأن النحلة هي رسول المحبة المحيية،
والنحلة والزهرة كلتاهما تعتقدان أن اقتبال اللذة وتقديمها حاجتان لا بدّ منهما وافتتان لا غنى للحياة عنه.

أجل، يا أبناء أورفليس، كونوا في لذاتكم كالنحل والأزهار.

الجمال

ثم قال له شاعر: هات لنا شيئاً عن الجمال.

فأجابه قائلاً:

أين تفتش عن الجمال، وكيف تقدر أن تهتدي إليه ما لم يكن هو نفسه طريقاً لك ودليلاً؟.

وكيف تستطيع أن تتحدث عن الجمال ما لم ينسج لك ثوباً لائقاً بخطابك؟.

* * *

فالحزين المتألم يقول: الجمال رقة ولطف، وهو يمشي بيننا كالأمّ الفتية الحيية من جلالها.».

والغضوب يقول: «كلا، بل الجمال قوة وبطش، فهو كالعاصفة يهز الأرض تحت أقدامنا والسماء فوق رؤوسنا».

والتعب الملول يقول: «إن الجمال لطيف المناجاة يتكلم في أرواحنا ويتموج صوته في سكون أذهاننا كما يرتعش النور الضئيل خوفاً من الظلّ الظليل.»

غير أن القلق المضطرب يقول: «قد سمعنا الجمال يصيح بأعلى صوته بين الجبال.

«يرافق صوته وقع الحوافر، وخفقان الأجنحة وزمجرة الأسود».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعند انتصاف الليل يقول حارس المدينة: «سيبزغ الجمال مع الفجر من المشرق.»

وعند الظهيرة يقول العمال وعابرو السبيل: قد رأينا الجمال يطلّ على الأرض من نوافذ المغرب.»

* * *

وفي الشتاء يقول جامعو الثلوج: سيأتي الجمال مع الربيع وهو يقفز على التلال.».

وفي الصيف يقول الحصادون: قد رأينا الجمال يرقص مع أوراق الخريف، وشاهدنا كومة من الثلج على رأسه».

كل هذا سمعتكم تقولونه في الجمال،.

غير أنكم في الحقيقة لم تقولوا فيه كلمة، وإنما تحدثتم بحاجاتكم غير المكملة والجمال ليس بالحاجة غير المكملة بل هو انشغاف وافتتان.

أجل، وليس الجمال فماً متعطشاً أو يداً ممدودة.

بل هو قلب متلهب، ونفس مفتونة مسحورة.

وليس بالصورة التي ترغبون في رؤيتها أو الأنشودة التي ترجون سماعها.

بل هو صورة تبصرونها ولو أغمضتم عيونكم، وأنشودة تسمعونها ولو أغلقتم آذانكم.

وليس بالعصارة الجارية في عروق الأشجار، ولا بالجناح المتعلق بالمخالب، بل هو بستان تزينه الأزهار إلى الأبد، وجوقة من الملائكة ترفرف بأجنحتها إلى منتهى الدهور.

* * *

نعم يا أبناء أورفليس. إن الجمال هو الحياة بعينها سافرة عن وجهها الطاهر النقي.

ولكن أنتم الحياة وأنتم الحجاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجمال هو الأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة ولكن أنتم الأبدية وأنتم المرآة.

الدين

ثم دنا منه كاهن شيخ وقال له: هات حدثنا عن الدين.

فأجاب قائلاً:

وهل تكلمتُ اليوم في موضوع آخر غير الدين؟

أليس الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات؟

أليس الدين كلّ ما في الحياة مما ليس هو بالعمل ولا بالتأمل بل غرابة وعجب ينبعان من جداول النفس أبداً وإن عملت اليدان في نحت الحجارة أو إدارة الأنوال؟.

من يستطيع أن يفصل أيمانه عن أعماله، وعقيدته عن مهنته؟

من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه قائلاً:

«هذه لله، وهذه لي، هذه لنفسي، وهذه لجسدي؟»

فإن جميع ساعات الحياة أجنحة ترفرف في الفضاء منتقلة من ذات إلى ذات.

وإن من ينظر إلى فضيلته نظرته إلى أفضل حلة يلبسها فالأجدر به أن يسير بين الناس عارياً.

لأن الريح والشمس لا تمزقان بشرته.

وكل من يقيد سلوكه وتصرفه بقيود الفلسفة والتقليد إنما يحبس طائر نفسه الغريد في قفص من حديد.

لأن أنشودة الحرية لا يمكن أن تخرج من بين العوارض والقضبان.

وكل من يعتقد أن العبادة نافذة يفتحها ثم يغلقها فهو لم يبلغ بعد هيكل نفسه المفتوحة نوافذه من الفجر إلى الفجر.

* * *

إن حياتكم اليومية هي هيكلكم وهي ديانتكم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خذوا السكة والكور والمطرقة والطنبور، وكل ما لديكم من الآلات التي صنعتموها رغبة في قضاء حاجاتكم أو سعياً وراء مسراتكم ولذاتكم.

لأنّكم لا تستطيعون أن ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ولا تقدرون أن تنحدروا بتصرفاتكم إلى أدنى من خيباتكم.

وليرافقكم جميع معارفكم من أبناء الإنسان.

لأنكم لا تستطيعون في عبادتكم أن تحلّقوا فوق آمالهم ولا أن تضعوا ذواتكم إلى أحقر من يأسهم.

* * *

وإن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحلّ الأحاجي والألغاز.
بل تأملوا ما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم.

وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشي في السحاب، ويبسط ذراعيه في البرق، وينزل إلى الأرض مع الأمطار.

تأمّلوا جيداً تروا ربّكم يبتسم بثغور الأزهار، ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار.

الموت

ثم قالت له المطرة: نود أن تحدثنا الآن عن الموت.
فقال لها: إنكم تريدون أن تعرفوا أسرار الموت
ولكن كيف تجدونها إن لم تسعوا إليها في قلب الحياة؟
لأن البومة التي لا تفتح عينيها إلا في الظلمة، البومة العمياء عن نور النهار، لا تستطيع أن تنزع الحجاب عن أسرار النور.

فإذا رغبتم بالحقيقة في أن تنظروا روح الموت، فافتحوا أبواب اقلوبكم على مصاريعها لنهار الحياة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

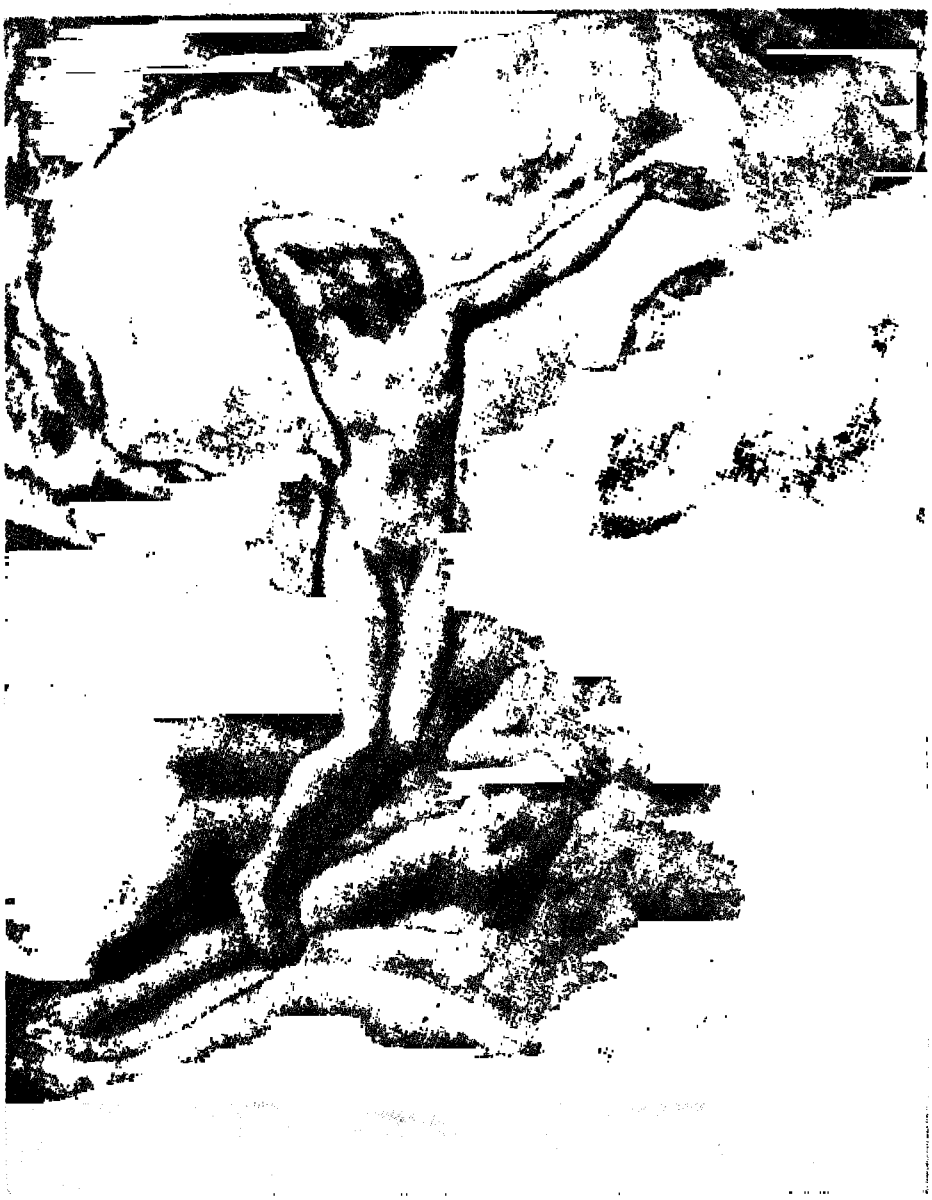

«الموت»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأن الحياة والموت واحد، كما أن النهر والبحر واحد أيضاً.

ففي أعماق آمالكم ورغباتكم تتكئ معرفتكم الصامتة لما وراء الحياة.

وكما تحلم الحبوب الهاجعة تحت الثلوج بالربيع، هكذا تحلم قلوبكم بربيعها.

لذلك فلتكن ثقتكم عظيمة بالأحلام، لأن بوابة الأبدية مختفية فيها.

أما خوفكم من الموت فهو أشبه بارتعاش الراعي الواقف أمام الملك الذي يريد أن يرفع يمينه فوقه لكي يكرمه وينعم عليه بوسام الرضى والفخر.

أفلا يفرح الراعي مع ارتعاشه لأن مليكه يقلده وسام الشرف والرضى؟ ولكن ألا يشعر مع ذلك بارتعاشه وخفقان قلبه؟.

وهل موت الإنسان هو أكثر من وقوفه عارياً في الريح وذوبانه في حرارة الشمس؟.

أم هل انقطاع التنفس غير تحرير النّفس من دورانه المتواصل، لكي يستطيع أن ينهض من سجنه ويحلق في الفضاء ساعياً إلى خالقه من غير قيد ولا عائق؟.

* * *

إنكم لا تستطيعون أن تترنموا بالأناشيد حتى تشربوا من نهر الصمت.

ولا تستطيعون أن تباشروا الصعود إلى الجبال حتى تبلغوا قننها.

ولن تقدروا أن ترقصوا حتى تتسلم الأرض جميع أعضائكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوداع

وكان المساء.

فقالت العرافة المطرة: مبارك هذا اليوم وهذا المكان الذي جمعنا بك ومباركة روحك التي خاطبت أرواحنا.

فأجاب وقال: «وهل أنا الذي تكلمت؟ ألم أكن أنا سامعاً نظيركم؟».

* * *

ثم نزل عن درجات الهيكل ومشى، فتبعه الشعب بأسره.

وظلّ يجدّ في سيره والشعب يلحق به حتى وصل إلى المرفأ فصعد إلى سفينته ووقف على ظهرها.

حينئذ رفع صوته والشعب ينظر إليه وقال لهم:

يا أبناء أورفليس، إن الريح تأمرني أن أفارقكم.

ومع أنني لست كالريح عجولاً، فإنّني مرغم أن أطيع أوامرها.

لأنّنا نحن الهائمين، الذين ينشدون أبداً أشد الطرق وحدةً، لا نبدأ أعمال نهار ما عندما نفرغ من نهار غيره، ولا يجدنا شروق شمس حيث تركنا الغروب الذي تقدمه.

لأنّنا، وإن نامت الأرض، مستيقظون نوالي مسيرنا.

* * *

نحن بذور نبات غريب عجيب، وفي بلوغنا واكتمال نمو قلوبنا قد وُهبنا منحة للريح فتفرقنا على وجه الأرض.

* * *

قليلة كانت أيامي بينكم، وأقلّ منها كلماتي التي تركتها لكم. ولكن إذا تلاشى صوتي في آذانكم وزالت محبتي من قلوبكم فحينئذٍ آتي إليكم سريعاً.

وأخاطبكم ثانية بقلب أوفر عطفاً من قلبي وشفتين أجزل إثماراً للروح من شفتيّ.

أجل، إنّني سأرجع مع المدّ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فـإن حجبنـي المـوت عنكـم الآن وضمّني الصمـت العظيـم بيـن طيـات سكينته، فإنّني سأنشد إدراككم مرة أخرى ولن تذهب أتعابي في ذلك الحين عبثاً.

فإن كنت قد خاطبتكم اليوم بالحقّ الصريح، فإن هذا الحقّ سيظهر ذاته لكم في ذلك اليوم بصوت أنقى من صوته اليوم، وبكلمات أقرب إلى أفكاركم من كلماته اليوم.

* * *

إنّني ماضٍ مع الريح، يا أبناء أورفليس، ولكنني لن أهبط إلى العالم السفلي، إلى الفراغ المرعب.

فإذا لم يكن هذا اليوم قد أكمل حاجاتكم وأفعمكم من محبتي، فليكن موعداً ليوم آخر.

فإن حاجات الإنسان تتبدّل ولكن محبته لا تتغيّر ومثلها رغبته في أن تشبع المحبة حاجاته.

فاعلموا إذن أنّني سأرجع إليكم من عالم الصمت والسكينة.

لأن الضباب الذي يفارق الأرض عند بزوغ الفجر من غير أن يترك سوى قطرات صغيرة من الندى في الحقول إنما يرتفع في الجو لكي يتجمع هنالك فيؤلف السحاب الذي لا يلبث أن يعود إلى الأرض مطراً غزيراً.

وقد كنت بينكم مثل هذا الضباب.

ففي سكينة الليل كنت أمشي في شوارعكم وكنت أدخل بروحي إلى أعماق منازلكم.

وكانت نبضات قلوبكم تتردد في قلبي وسحائب لهاثكم تنتشر على وجهي، وقد عرفتكم بعجركم وبجركم.

نعم، قد عرفت فرحكم وحزنكم، وفي هجوعكم كانت أحلامكم أحلاماً لي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكثيراً ما كنت بينكم بحيرة بين الجبال.

فكانت ترتسم على صفحات مرآتي قننكم الشاهقة ومنحدراتكم المتعرجة حتى قطعان أفكاركم ورغباتكم العابرة عليها.

وكان ضحك أولادكم يجري إلى سكينتي مع مياه الجداول، وكان حنين شبانكم وشاباتكم يأتي اليّ مع مجاري الأنهار.

ومع أن الجداول والأنهار كانت تبلغ أعماقي فإنّها لم تكن تنقطع البتة عن الغناء.

ولكن هنالك ما هو أحلى من الضحك وأعذب من الحنين بين من جاء إليّ منكم،

ألا وهو الكائن غير المحدود فيكم،

الإنسان البالغ العظمة فيكم الذي لستم سوى أنسجة وعضلات في كيانه، والمرنّم الذي ليس غناؤكم أمام غنائه سوى اختلاج وهينمة.

وأنتم لا تعرفون العظمة إلا بهذا الإنسان العظيم الذي فيكم،
وعندما رأيته رأيت حقيقتكم، وأحببتكم.

لأنّه هل في الوجود علوّ أو بعد تصل إليهما المحبة ولا يحيط بهما في دائرة كيانه العظيمة الاتساع؟

أم هل هنالك تصورات أو تمنيات أو أحلام تستطيع أن تسمو فتبلغ أقصى ارتفاعه؟

أجل إنّ هذا الإنسان العظيم هو بالحقيقة كالسنديانة الجبارة المغطّاة ببراعم التفاح الجميلة.

فقدرته تقيدكم بالأرض، وشذاه يرفعكم إلى أعالي الفضاء، وفي عزمه وصبره على عواصف الطبيعة أنتم خالدون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد أخبرتم فيما مضى أنّكم كالسلسلة، ضعفاء كأضعف حلقة في كيانكم.

غير أن هذا إنما هو نصف الحقيقة، فأنتم أيضاً أقوياء كأقوى حلقة من سلسلتكم.

لأنّنا إذا حكمنا عليكم بأصغر أعمالكم كنّا كمن يحكم على قوة البحر بما في زبده من الضعف وسرعة الزوال.

وإن حكمنا عليكم بخيبتكم كنّا كمن يلوم الفصول لتعاقبها وعدم ثباتها.

* * *

أجل، إنّكم بالحقيقة كالأوقيانوس العظيم.

فمع أن سفناً عظيمة تنتظر مد البحر وجزره على شواطئكم فأنتم كالأوقيانوس، لا تستطيعون أن تعجلوا مدّكم وجزركم.

وأنتم كالفصول أيضاً يا أبناء أورفليس.

فإنّكم تنكرون ربيعكم في شتائكم،

ولكن الربيع لا ينكركم، بل يبتسم لكم في غفلته، من غير أن يغضب أو يتعكر صفوه.

ولا يخطر لكم أني أقول لكم هذا لكي أحملكم على أن تهمسوا بعضكم لبعض قائلين: «قد أجاد في مديحنا والثناء علينا، ولم يرَ سوى الصالح فينا.».

فإنّني أنقل إليكم بألفاظي ما تدركونه أنتم بأفكاركم.

وهل المعرفة اللفظية سوى ظل للمعرفة غير اللفظية؟

لأن أفكاركم وكلماتي ما هي عند التحقيق إلا أمواج تقذف بها بحيرة الذاكرة المختومة التي تحتفظ بدواوين ماضينا وماجرياته.

وحوادث الأيام المتصرمة عندما لم تكن الأرض تعرفنا، وكانت تجهل ذاتها أيضاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأحلام الليالي عندما كانت الأرض خربة خاوية خالية.

قد جاءكم الحكماء قبلي لكي يقدموا لكم من حكمتهم، أما أنا فقد أتيت إليكم لكي أغرف من معين حكمتكم.

وها أنذا قد وجدت ما هو أعظم من الحكمة.قد وجدت روحاً ملتهبة فيكم ما برحت تستزيد جمع مبعثرات ذاتها، غير أنكم كنتم وما زلتم غافلين عن اتساعها وتعاظمها تنوحون وتبكون على أيامكم الزائلة.

فإن الحياة تفتش عن الحياة في أجسام الذين يخافون القبور.

* * *

ولكن لا قبور ههنا.

لأن هذه الجبال والسهول إنما هي بالحقيقة سرير ومرقاة. فإذا قادتكم خطواتكم إلى الحقل الذي وضعتم فيه أسلافكم فتأمّلوا جيداً جميع جهاته، تروا ذواتكم ترقصون مع أولادكم جنباً إلى جنب.

فإنني الحق أقول لكم: إنّكم كثيراً ما تفرحون وأنتم لا تعرفون.

وآخرون جاؤوا إليكم وعللوكم بالمواعيد الذهبية التي تبنون عليها صروح إيمانكم، فوهبتم لهم ثروة وقوة وعظمة.

أما أنا فقد أعطيتكم أحقر موعد ولكنكم أظهرتم نحوي أريحيّة لم تظهروها لسواي.

فقد أعطيتموني تعطشي الشديد للحياة.

فإنّني أصارحكم القول إنّه ما من عطية في هذا العالم أجزل فائدة للإنسان من العطية التي تحوّل كل ما في كيانه من الميول والرغبات إلى شفتين محترقتين عطشاً، وتجعل حياته جميعها ينبوعاً حيّاً باقياً.

وهوذا فخري وأجري.

في أية ساعة جئت الينبوع متعطشاً أجد الماء الحي المتدفق من فم الينبوع متعطشاً أيضاً،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيشربني هذا الماء كما أشربه.

وقد خيّل إلى البعض منكم أنني عيوفٌ حييٌ فلا أقبل عطية من عطاياكم.

على أنّني بالحقيقة أكره قبول الأجور ولكنني لا أرفض العطايا.

وإنّه غير خافٍ عليكم أنّني كنت أتقوت بأثمار العليق والتوت بين التلال في حين أنّكم كنتم ترغبون في أن أجالسكم حول موائدكم.

وكنت أنام في رواق الهيكل في حين أن كلاًّ منكم كان يفرح لو يتاح له أن يؤويني في بيته.

ولكن أليست محبتكم الشديدة الممزوجة بدموع العناية بأيامي ولياليّ هي التي جعلت الطعام حلواً في فمي وحفّت نومي بالوحي والأحلام؟

* * *

لأجل هذا أباركم من أعماق قلبي.

لأنكم تعطون كثيراً ولا تعرفون أنكم تعطون شيئاً.

الحق أقول لكم: إن اللطف الذي ينظر إلى ذاته في مرآة ينقلب حجراً. والعمل الصالح الذي يسميّ نفسه بأسماء جميلة يصير والداً للعنة كريهة.

وقد دعاني فريق منكم متوحداً ثملاً بمحبة وحدتي.

أمّا أنتم فقلتم بعضكم لبعض: لا تبالغوا في عذله وملامته، فإنّه يحب أن يؤلف مجلسه من أشجار الأحراج وليس من أبناء الإنسان وهو يستلذّ الجلوس على رؤوس التلال والنظر إلى مدينتنا.

وإنّني بالحقيقة قد تسلقت التلال ومشيت في أراضٍ بعيدة جداً.

لأنه كيف أمكنني أن أراكم من غير أن أكون في علو شاهق أو بُعد شاسع؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو كيف يستطيع أحدٌ أن يكون قريباً ما لم يكن بعيداً؟.

* * *

وغيركم من كان يناديني ولكن بغير الألفاظ، ويقول لي:

«أيها الغريب، أيها الغريب المتعشق ما لا يُبلغ من الشاهقات، لماذا تقطن بين قنن الجبال حيثما تبني النسور أعشاشها؟.

لماذا تسعى إلى ما لا سبيل للحصول عليه؟

أي نوع من العواصف تريد أن تصطاد لشبكتك،

وما هي الطيور البخارية التي تفتش عنها في السماء؟

هلمّ إلينا، وكن واحداً منّا،

اهبط من علوك، وسكن حدة مجاعتك بخبزنا، واخمد لظى عطشك بلذيذ خمرتنا!»

قالوا هذه الأقوال كلها في وحدة نفوسهم.

ولو كانت وحدتهم أعمق مما هي لأدركوا أنّني لم أكن أسعى إلا إلى إدراك سرّ أفراحكم وآلامكم.

ولم أكن أصطاد سوى ذواتكم الكبرى السائرة نحو السماء.

ولكن الصياد قد صار صيداً:

لأن كثيراً من سهامي لم تترك قوسي إلا لكي تسعى إلى صدري.

والطائر قد صار زحافة:

لأنني عندما بسطت جناحي في الشمس صار ظلهما على الأرض سلحفاة.

وأنا المؤمن صرت مرتاباً:

لأنّني كثيراً ما وضعت إصبعي في جنبي رجاء أن أبلغ كمال إيماني بكم ومعرفتي لحقيقتكم.

* * *

وبهذا الإيمان وهذه المعرفة أقول لكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنكم لستم محصورين في سجون أجسادكم، كلا، ولستم مقيدين بجدران بيوتكم وحدود حقولكم.

فإن الذات الخفية التي تمثل حقيقتكم تقطن فوق الجبال وتهيم مع الرياح. لأنها لا تدب إلى الشمس مستدفئة ولا تتلمس طريقها في الظلمة مستنجدة، بل هي روح حرة طليقة تغلف الأرض وتركب دقائق الأثير.

* * *

وإن جاءت كلماتي هذه غامضة على أفهامكم فلا تسعوا وراء إيضاحها. فإن الغموض والسديم هما بداءة كل شيء لا نهايته.

وإنّني بملء الرغبة أود أن تتذكروني كبداءة.

والحياة، وجميع الكائنات الحيّة، إنّما تتصور أولاً في الضباب وليس في البلور.

ومن يدري أن البلور لم يكن ضباباً متجمداً؟.

* * *

وهذا ما أودّ أن تحتفظوا به مع ذكراي:

إن ما يبدو لكم ضعيفاً فيكم هو أقوى وأثبت ما في كيانكم. لأنه أليس لهاثكم هو الذي يقيم بنيان عظامكم ويشدده؟.

بل أليس الحلم الذي لم يحلم به أحد منكم قط هو الذي بنى مدينتكم وعمل كل ما فيها؟

فلو كان لكم أن تنظروا مجاري ذلك اللهاث لما كانت لكم حاجة إلى أن تنظروا شيئاً آخر غيرها.

ولو استطعتم أن تسمعوا مناجاة ذلك الحلم لما كنتم ترغبون في سماع أي صوت آخر في العالم.

ولكنكم لا تنظرون ولا تسمعون، وحسناً تفعلون.

فإن الحجاب المسدول على عيونكم سترفعه اليد التي حاكته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطين الذي يسدّ آذانكم ستنتزعه الأصابع التي جبلته.
وحينئذ تبصرون،
وحينئذ تسمعون
بيد أنكم لن تتحسروا على أنّكم كنتم عمياً أو صماً.

لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفية في كل شيء.
وستباركون الظلمة كما تباركون النور.

* * *

وعندما قال هذا نظر حواليه، فرأى ربّان سفينته منتصباً أمام السكان وهو ينظر تارة إلى الأشرعة وطوراً إلى البحر.

فقال:

إن ربان سفينتي واسع الصدر جزيل الصبر.
فإن الريح تهب بعنف. والأشرعة مضطربة.
حتى إن السكان نفسه يحتاج إلى من يديره.
ومع كل هذا فإن ربان سفينتي ينتظر سكوتي.

وهؤلاء الملاحون رفقائي الذين سمعوا جوق المنشدين في البحر الأعظم، قد أصغوا إليّ بطول أناة.

ولكنهم لن ينتظروا ثانية واحدة بعد.
فإنّني على أتم الأهبة للسفر.

فقد وصل الجدول إلى البحر، وأتيح للأم العظيمة أن تضم ابنها إلى صدرها مرة ثانية.

* * *

فالوداع، الوداع يا أبناء أورفليس.

قد غربت شمس هذا اليوم.

وأغلق علينا أبوابه كما تغلق زنبقة الغور أوراقها على غدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكل ما أعطينا ههنا سنحتفظ به،
وإذا لم يكن كافياً لسدّ حاجاتنا. فإنّنا نأتي ثانية إلى هذا المكان ونمدّ أيدينا معاً لمن أعطانا.

ولا تنسوا أنني سآتي إليكم مرة أخرى.
فلن يمرّ زمن قليل حتى يشرع حنيني في جمع الطين والزبد لجسد آخر.

قليلاً ولا ترونني، وقليلاً وترونني.
لأن امرأة أخرى ستلدني.

* * *

أودعكم وأودع الشباب الذي قضيت بينكم.
فإنّنا في الأمس قد اجتمعنا كما في حلم.
قد أنشدتم لي في وحدتي. وبنيت لكم من أشواقكم برجاً في السماء.

ولكن عهد النوم قد انقضى والحلم قد مضى، ولسنا الآن عند بزوغ الفجر.

لأن الظهيرة ترقص فوق رؤوسنا، ويقظتنا الناقصة قد تحولت إلى نهار كامل، فيجدر بنا أن نفترق.

فإذا جمعنا شفق الذكرى مرة أخرى فإننا حينئذ نتكلم معاً، وحينئذٍ تنشدون لي أنشودة أوقع في النفس من أنشودة اليوم.

وإن اجتمعت أيدينا في حلم ثانٍ فهنالك سنبني برجاً آخر في السماء.

وعندما قال هذا أشار إلى الملاحين إشارة تؤذن بالسفر، فرفعوا مرساة السفينة في الحال وحلوا حبالها وساروا نحو الشرق.

فصرخ الشعب كله بصوت عظيم كأنّه صادر من قلب واحد، وتعالى صراخهم في الشفق فحملته دقائق الهواء فوق البحر كأنّه صوت بوق عظيم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما المطرة العرافة فكانت صامتة وحدها، تشيع السفينة بنظرها حتى توارت في الضباب.

ثم تفرّق الشعب كل في سبيله، بيد أنها ظلت وحدها واقفة على شاطئ البحر تردّد في قلبها كلمات المصطفى الأخيرة:

«قليلاً ولا ترونني، وقليلاً وترونني،
لأن امرأة أخرى ستلدني».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رمل وزبد

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس هذا الكتاب الصغير بأكثر من اسمه ـ رمل وزبد ـ حفنة من الرمل وقبضة من الزبد.

وبالرغم عمّا ألقيت بين حباته وحبات قلبي، وبالرغم عمّا سكبت على زبده من عصارة روحي، فهو الآن وسيبقى أبداً أقرب إلى الشاطئ منه إلى البحر وأدنَى إلى الشوق المحدود منه إلى اللقاء الذي لا يحدّه البيان.

بين جانحي كل رجلٍ وكل امرأة قليل من الرمل وقليل من الزبد. ولكن بعضنا يبيّن ما بين جانحيه وبعضنا يخجل. أما أنا فلم أخجل. فاعذروني وسامحوني.

جبران خليل جبران

نيويورك في كانون الأول سنة ١٩٢٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رمل وزبد

على هذه الشواطئ أتمشى أبداً،
بين الرمل والزبد.
إن المد سيمحو آثار قدمي، وستذهب الريح بالزبد.
أما البحر والشاطئ فيظلان إلى الأبد.

*

ملأت يدي مرة بالضباب. ثم فتحتها فإذا بالضباب قد صار دودة.
وأغلقت يدي وفتحتها ثانية فإذا هنالك عصفور.
ثم أغلقت يدي وفتحتها للمرة الثالثة، فإذا في راحتها رجل حزين الوجه ينظر إلى العلاء.

وأغلقت يدي راجعة، وعندما فتحتها لم أرَ فيها غير الضباب.
ولكنني سمعت أغنية بالغة الحلاوة.

*

خيل إليّ في الأمس أني ذرة تتموج مرتجفة في دائرة الحياة بغير انتظام.
واليوم أعرف كل المعرفة أني أنا الدائرة وأن الحياة بأسرها تتحرّك في بذرات منتظمة.

*

يقولون في يقظتهم: ما أنت والعالم الذي تعيش فيه سوى حبة رمل على شاطئ غير متناهٍ لبحرٍ غير متناهٍ.
وفي حلمي أقول لهم: أنا هو البحر غير المتناهي، وما جميع العوالم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوى حبات من الرمل على شاطئي.

*

ما عييت إلا أمام من سألني: من أنت؟

*

فكر الله، فكان فكره الأول ملاكاً.

وتكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً.

*

كان الانسان مخلوقاً هائماً ينشد ذاته الضالة في الأحراج قبل أن منحه البحر والريح كلماته بألف ألف سنة.

فكيف يستطيع والحالة هذه أن يعبر عن العتيق من الأيام فيه بأصوات حقيرة لم يتعلمها إلا في الأمس القريب؟

*

تكلم أبو الهول مرة واحدة في حياته. وإليك ما قال: حبة الرمل صحراء، والصحراء حبة رمل. قال هذا وسكت ثانية ولم يفتح فاه.

قدسمعت ما قاله أبو الهول بيد أنّني لم أفهم.

*

رأيت وجه امرأة. فرأيت أولادها ولم يولدوا بعد.

ونظرت امرأة إلى وجهي. فعرفت آبائي وجدودي وقد ماتوا قبل أن تولد.

أودّ الآن لو يتاح لي أن أكمل ذاتي. ولكن أنّى لي ذلك إذا لم أتحول إلى سيادة يعيش عليها العاقلون من الأحياء

أليست هذه ضالة كل إنسان على الأرض؟

*

الدرّة هيكل بناه الألم حول حبّة رمل.

فما هو الحنين الذي بنى أجسادنا وما هي الحبوب التي بُنيت حولها؟

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندمارماني الله حصاة صغيرة في هذه البحيرة العجيبة أزعجت هدوءها بأن أحدثت على سطحها دوائر لايُحصى عديدها.

ولكنني عندما بلغت إلى أعماقها صرت هادئة مثلها.

*

أعطني الصمتَ أقتحم غمرات الليل.

قد ولدت ثانيةً عندما وقع جسدي بحب نفسي وتزوجا معاً.

*

عرفت في حياتي رجلاً حادّ السمع ولكنه كان أبكم. فقد خسر لسانه في معركة.

وأنا أعرف اليوم الحروب التي حاربها هذا الرجل قبل أن حل به قضاء الصمت العظيم. ويسرّني جدّاً أنّه قد مات.

لأن العالم على سعته لا يكفي لنا معاً.

*

طويلاً نمت في أرض مصر صامتاً غافلاً عن الفصول.

ثم ولدتني الشمس، فوقفت ومشيت على حافتي النيل مترنّماً مع الأيام حالماً مع الليالي.

والآن تعمش الشمس عليّ بألف قدم لكي أنام ثانية في أرض مصر.

ولكن هوذا الأعجوبة والاحجية.

فإن الشمس نفسها التي جمعتني لا تستطيع أن تفرقني.

لذلك ما برحت منتصباً أمشي بخطى ثابتة على حافتي النيل.

*

التذكار شكل من أشكال اللقاء.

*

النسيان شكل من أشكال الحرية.

*

نحن نقيس الزمان بمقتضى حركة الشموس التي لا تحصى وهم يقيسون الزمان بآلات صغيرة يحملونها في جيوبهم.

فقل لي، رعاك الله، كيف يمكن أن نجتمع معاً في مكان واحد وفي وقت واحد؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس الفضاء فضاءً بين الأرض والشمس لمن ينظر إليه من نوافذ المجرّة.

*

الانسانيّة نهر من النور يسير من أودية الأزل إلى بحر الأبد.

*

ألا تحسد الأرواح القاطنة في الأثير الانسان على كآبته؟

*

في طريقي إلى المدينة المقدسة لقيت حاجّاً آخر، فسألته: أهذه حقيقة الطريق إلى المدينة المقدسة؟

فأجابني: هلمّ ورائي تصل إلى المدينة المقدسة في يوم وليلة.

فتبعته للحال. وسرنا أياماً وسرنا ليالي ولكننا لم نبلغ إلى المدينة المقدسة.

وشدّ ما كانت دهشتي عظيمة إذ عرفت أنّه غضب لأنّه لم يسر بي في الصراط المستقيم.

*

اجعلني يا الله فريسة الأسد قبل أن تجعل الأرنب فريستي.

*

قال لي منزلي: لا تهجرني لأن ماضيك يقطن فيّ.

وقالت لي الطريق: هلم ورائي. فأنا مستقبلك.

أما أنا فأقول لمنزلي والطريق معاً: ليس لي ماضٍ ولا مستقبل. فإذا أقمت هنا ففي إقامتي ذهاب، وإذا ذهبت فهنالك إقامة في ذهابي، فإن المحبة والموت وحدهما يغيّران كل شيء.

*

كيف أخسر إيماني بعدل الحياة، وأنا أعرف أن أحلام الذين ينامون على الريش ليست أجمل من أحلام الذين ينامون على الأرض؟

*

ما أغربني عندما أشكو ألماً فيه لذتي!

*

سبع مرات احتقرت نفسي:

أولاً ـ عندما رأيتها تتلبّس بالضعة لتبلغ إلى الرفعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانياً ـ عندما رأيتها تقفز أمام المخلصين.

ثالثاً ـ عندما خُيرتْ بين السهل والصعب فاختارت السهل.

رابعاً ـ عندما اقترفت إثماً ثم جاءت تعزي ذاتها بأن غيرها يقترف الإثم مثلها.

خامساً ـ عندما احتملت ما حلّ بها لضعفها. ولكنها نسبت صبرها للقوة.

سادساً ـ عندما احتقرت بشاعة وجه ما هو عند التحقيق سوى برقع من براقعها.

سابعاً ـ عندما أنشدت أغنية ثناء ومديح، وحسبتها فضيلة.

أنا لا أعرف الحقيقة المجردة، ولكنني أركع متضعاً أمام جهلي، وفي هذا فخري وأجرى.

*

بين خيال الانسان وإدراكه مسافة لا يجتازها سوى حنينه.

*

الفردوس قائم هناك، وراء ذلك الباب، في الغرفة المجاورة، ولكنني أضعت مفتاح الباب.

ولعلي لم أضعه بل وضعته في غير موضعه.

*

أنت أعمى، وأنا أصم أبكم، إذن ضع يدك بيدي فيدرك أحدنا الآخر.

*

ليست قيمة الانسان بما يبلغ إليه، بل بما يتوق للبلوغ إليه.

*

بعضنا كالحبر وبعضنا كالورق.

فلولا سواد بعضنا لكان البياض أصم.

ولولا بياض بعضنا لكان السواد أعمى.

*

أعطني أذناً أعطِك صوتاً.

العقل إسفنجة، والقلبُ جدول.

أفليس بالغريب أن أكثرنا يؤثرون الامتصاص على الانطلاق؟

*

إذا تقت إلى البركات التي لا تعرف لها اسماً،

وإذا حزنت وأنت لا تعرف سبباً لحزنك،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأنت حينئذ تنمو بالحقيقة مع جميع الناميات، وترتفع متسامياً إلى ذاتك العظمى.

*

إذا سكر الانسان برأي حسب أضعف تعبير عنه خمرة طيبة.

أنتم تشربون الخمر لتسكروا، وأنا أشربها لأصحو من خمرة غيرها.

إذ فرغت كأسي رضيت بفراغها، وإذا لم يكن فيها سوى نصفها اعترضت على نصف امتلاكها.

*

ليست حقيقة الانسان بما يظهره لك، بل بما لا يستطيع أن يظهره. لذلك إذا أردت أن تعرفه، فلا تصغ إلى ما يقوله بل إلى ما لا يقوله.

*

نصف ما أقوله لك لامعنى له. ولكنني أقول ليتمّ معنى النصف الآخر.

تعرف الفكاهة إذا عرفت اغتنام الفرص السانحة.

*

لم أشعر بألم الوحشة حين مدح الناس عيوبي الثرثارة وطعنوا في عيوبي الخرساء.

*

عندما لا تجد الحياة مغنّياً يتغنّى بقلبها تلد فيلسوفاً يتكلم بعقلها.

يجب أن تعرف الحقيقة أبداً وتقولها بعض المرات.

الحقيقي فينا صامت ولكن الاكتسابي ثرثار.

*

لايستطيع صوت الحياة الذي فيّ أن يصل إلى أذن الحياة التي فيك، ولكن فلنتكلم على كل حال لئلا نشعر بوحشة الانفراد.

*

إذا تكلمت امرأتان فهما لا تعُلنان شيئاً.

وإذا تكلمت امرأة واحدة فإنها تعلن الحياة كلها.

قد يكون للضفادع أصوات أعلى من أصوات البقر.

*

ولكن الضفادع لا تستطيع أن تجرّ السكة في الحقل، ولا أن تدير دولاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعصرة، ولايمكنك أن تصنع من جلودها أحذية.

*

لايحسد الثرثار إلا الاصم.

*

إذا قال الشتاء: إن الربيع في قلبي، فمن ذا يصدق الشتاء؟

*

في كل بزرة حنين.

*

افتح عينيك جيداً وانظر. تجد صورتك في كل الصور.
وافتح أذنيك جيداً وأصغ، تسمع صوتك في كل الأصوات.

*

يحتاج الحق إلى رجلين: الواحد لينطلق به والآخر ليفهمه.

*

مع أن أمواج الألفاظ تغمرنا أبداً، فإن عمقنا صامت أبداً.

*

كثير من المذاهب كزجاج النافذة، نرى الحقيقة من خلالها، ولكنها تفصلنا عن الحقيقة.

*

هلم بنا نلعب لعبة «تخبأ مليح» ونفتش بعضنا عن بعض، فإذا اختبأت في قلبي فليس بالصعب عليّ أن أجدك، ولكن إذا اختبأت وراء صدفتك فحينئذ عبثاً يحاول الناس أن يهتدوا إليك.

*

تستطيع المرأة أن تقنّع وجهها بابتسامة.

*

ما أنبل القلب الحزين الذي لا يمنعه حزنه عن أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة.

ما أشبه الراغب في فهم المرأة أو تحليل العبقرية أو حلّ سر الصمت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بذلك الرجل الذي يفيق من حلم جميل ليأكل طعام الصباح .

*

سأمشي مع جميع الماشين، ولا ولن أقف بلا حراك لأراقب موكب العابرين بي.

*

أنت مدين لمن يخدمك بما هو أثمن من الذهب. فأعطِهِ من قلبك أو فاخدمه.

*

ألا إنّنا لم نعش عبثاً. أفلم يبنوا الأبراج من عظامنا؟.

*

تكثر التحقيق ولا تبالغ في التدقيق. فإنّ فكر الشاعر وذنب العقرب يرجعان في مجدهما إلى الأرض الواحدة.

*

كل تنين يلد مار جرجس يقتله.

*

الأشجار أشعار تكتبها الأرض على السماء، ونحن نقطعها ونصنع الورق منها لندون فيه فراغنا وبلادتنا.

*

إذا وجدت في نفسك ميلاً للكتابة ـ ولا يعلم سرّ هذا الميل إلاّ القديسون ـ فلتكن فيك المعرفة والفنّ والسحر: معرفة موسيقى الألفاظ، وفن البساطة والسذاجة، وسحر محبة قرائك.

*

يغمسون أقلامهم في دماء قلوبنا ثم يدّعون الوحي والإلهام.

*

لو استطاعت الشجرة أن تدون ترجمة حياتها لما اختلفت ترجمتها عن تاريخ أية أمة من الأمم.

*

لو خُيّرتُ بين القوّة على كتابة الشعر وما في الشعر غير المكتوب من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهيام، لاخترت الهيام فهو خير من الشعر.

ولكنك وجميع جيراني ومعارفي واثقون أبداً بجهلي، وبأني أختار الرديء دون الصالح.

*

ليس الشعر رأياً تعبّر الألفاظ عنه، بل هو أنشودة تتصاعد من جرحٍ دامٍ أو فم باسم.

*

الألفاظ لا تتقيد بقيود الزمان. فيجدر بك إذا تكلمت أو كتبت أن تضع هذه الحقيقة نصب عينيك.

*

الشاعر ملك خُلع عن عرشه فجلس بين رماد قصره يعمل في صنع صورة من الرماد.

إنما الشعر كثير من الفرح والألم والدهشة مع قليل من القاموس.

عبثاً يحاول الشاعر أن يهتدي إلى أم أناشيد قلبه.

*

قلت مرة لشاعر: إننّا لا نعرف قيمتك حتى تموت.

فأجاب قائلاً: أجل، إن الموت يسدل النقاب عن وجه الحقيقة أبداً. وإذا كنتم بالحقيقة تودّون أن تعرفوا قيمتي عن طريق الموت فما ذلك إلا لأن في قلبي أكثر مما على لساني، وفي رغباتي أكثر مما في يدي.

*

إذا ترنّمت بأناشيد الجمال تجد من يصغي لإنشادك ولو كنت في قلب الصحراء.

الشعر حكمة تسحر القلب.

والحكمة شعر يترنّم بأناشيد الفكر.

ولو استطعنا أن نسحر قلب الانسان ونترنّم في الوقت نفسه بأناشيد فكره، لقدر إذ ذاك أن يعيش في ظلّ الله.

*

الوحي ينُشد أبداً، الوحي لا يفسّر البتّة.

*

كثيراً ما نغني لأولادنا لننام نحن أنفسنا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع كلماتنا فتات يتساقط عن مائدة الفكر.

*

التفكير عقبة دائمة في سبيل الشعر.

*

إنما المنشد العظيم ذلك الذي يترنم بأناشيد صمتنا.

*

كيف تستطيع أن تغني إذا كان فمك ممتلئاً طعاماً؟
وكيف ترتفع يدك بالبركة إذا كانت ممتلئة ذهباً؟

*

يقولون إن البلبل ينخز صدره بمنخز عندما يغني أغنية محبته .
ونحن جميعاً مثله. إذ بغير هذا كيف نستطيع أن نغني؟

*

العبقرية أنشودة طائرفي بدء ربيع متأخر.

*

إن الروح المجنّحة نفسها لا تستطيع أن تتخلّص من الحاجات الطبيعية.

*

المجنون موسيقي مثلك ومثلي، ولكن الآلة التي يضرب عليها لا تخرج ألحاناً.

*

الأنشودة الكامنة في صمت قلب الأم تتردّد على شفتي طفلها.

*

ليس في العالم شهوة لا تتحقق.

*

لم أتفق قطّ مع ذاتي الثانية كل الاتفاق. ويلوح لي أن سر القضية كائن بيني وبينها.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن ذاتك الثانية حزينة من أجلك أبداً. ولكن ذاتك الثانية تعيش وتنمو على الحزن. ولذلك فإن حزنها يؤول إلى فرح.

لا قتال بين النفس والجسد إلا في أفكار الذين نفوسهم هاجعة وأجسادهم خانعة.

*

إذا بلغت إلى قلب الحياة تجد الجمال في كل شيء، حتى في العيون المتعامية عن الجمال.

الجمال ضالتنا المنشودة في حياتنا كلها، وكل ما سوى ذلك أشكال من الانتظار.

*

ابذر بذرة تنبت لك الأرض زهرة، انشُدْ أحلامك في السماء تعطِك السماء من تحبه نفسك.

*

مات الشيطان يوم ميلادك.
فليس عليك الآن أن تجتاز الجحيم لكي تجد ملاكاً.

*

ما أكثر النساء اللواتي يستعرن قلب الرجل!
ولكن ما أقل اللواتي يستطعن الاحتفاظ به!.

إذا شئت أن تملك شيئاً فلا تدعه لنفسك.

عندما يلمس الرجل بيده يد امرأة، يلمس كلاهما قلب الأبدية:

المحبة قناع بين محب ومحب.

كل رجل يحب امرأتين: واحدة يخلقها خياله، والثانية لم تولد بعد.

الرجل الذي لا يغتفر للمرأة هفواتها الصغيرة لن يتمتع بفضائلها الكبيرة.

الحب الذي لا يتجدد في كل يوم وليلة يتحول إلى شكل من قوة الاستمرار وهذه في وقتها لا تلبث أن تنقلب عبودية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«المتحابان في النشوة الروحية»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعانق المحبان ما بينهما أكثر مما يعانق أحدهما الآخر.

المحبة والشك لا يجتمعان.

المحبة كلمة من نور، كتبتها يد من نور، على صحيفة من نور.

*

الصداقة مسؤولية لذيذة أبداً وليست الصداقة فرصة للنفعيين.

إذا كنت لا تفهم صديقك في جميع الظروف فأنت لا ولن تفهمه.

*

إن أجمل أثوابك قد نُسجَ في نول ذاتك الأخرى.

وأطيب مآكلك تتناولها على مائدة ذاتك الأخرى.

وأفضل سرير لراحتك هو في بيت ذاتك الأخرى.

فقل لي بربك كيف تستطيع أن تفصل نفسك عن ذاتك الأخرى؟.

لن يتفق فكرك وقلبي حتى ينقطع فكرك عن أن يعيش بالأرقام ويقف قلبي عن الحياة بالضباب.

*

لن نفهم بعضنا بعضاً حتى نحول اللغة إلى سبع كلمات.

كيف تُفَضّ أختام قلبي إذا لم ينسحق؟.

*

لا يظهر الحق الذي فيك إلا الألم العظيم أو الفرح العظيم.

فإذا شئت أن تعلن حقيقة ذاتك وجب عليك إمّا أن ترقص عارياً في الشمس أو أن تحمل صليبك.

*

لو أصغت الطبيعة إلى مواعظنا في القناعة لما جرى فيها نهر إلى البحر ولما تحوّل شتاء إلى ربيع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو أصْغت إلى كل نصائحنا في وجوب الاقتصاد، فكم كان بيننا الذين يتنشقون هذا الهواء؟

*

إنك لا ترى سوى ظلك وأنت تدير ظهرك للشمس.

*

أنت حر أمام شمس النهار.
وأنت حرّ أمام قمر الليل وكواكبه.
وأنت حرّ حيث لا شمس ولا قمر ولا كواكب.
بل أنت حرّ عندما تغمض عينيك عن الكيان بكليته.
ولكن أنت عبد لمن تحب لأنّك تحبه.
وأنت عبد لمن يحبك لأنه يحبك.

*

جميعنا متسولون نقف على بوابة الهيكل، وكل منا ينال قسطه من عطية الملك وهو يدخل إلى الهيكل ويخرج منه.

ولكننا جميعاً نحسد بعضنا بعضاً، فنظهر بهذا تصغيرنا للملك.

*

إنك لا تستطيع أن تأكل أكثر من حاجتك. فإن نصف الرغيف الذي لا تأكله يخصّ الشخص الآخر، ويجب أن تحفظ غيره قليلاً من الخبز لضيف ربما يمر بك على بغتة.

*

لولا الضيوف لكانت البيوت قبوراً.

قال ذئب مضياف لحمل مسكين: هل تريد أن تشرف منزلنا بزيارة؟ فأجابه الحمل: كم كان فخري بزيارتك عظيماً لو لم يكن منزلك في معدتك.

أوقفت ضيفي على عتبة بابي وقلت له: بربك لا تمسح قدميك وأنت تدخل، بل امسحهما وأنت تخرج.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس السخاء بأن تعطيني ما أنا في حاجة إليه أكثر منك، بل السخاء بأن تعطيني ما تحتاج إليه أكثر منّي.

أنت رحوم إذا أعطيتَ، ولكن لا تنسَ وانت تعطي أن تدير وجهك عمن تعطيه لكي لا ترى حياءه عارياً أمام عينيك.

*

الفرق بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء يوم جوع وساعة عطش.

*

نستدين في الغالب من غدنا لكي ندفع ديون أمسنا.

*

كثيراً ما تزورني الملائكة والشياطين، ولكنني أتخلص منهم. فإذا كان الزائر ملاكاً فإني أصلي صلاة قديمة فيملها ويترك منزلي. وإذا كان شيطاناً فإنّي أرتكب أمامه خطيئة قديمة فيمرّ بي مجتازاً.

ليس هذا بالسجن الرديء على كل حال، ولكنني لا أحب هذا الجدار الذي يفصلني عن السجين في الغرفة الثانية.

على أنني أؤكد لك أنّني لا أريد أن أقرب من السجان ولا من الذي بنى السجن.

*

إن الذين يعطونك حية وأنت تسألهم سمكة ربما ليس لديهم ما يعطونه غير الحيات. ولذلك يحسب عملهم أريحية وسخاء.

ينجح الخداع حيناً، ولكنه يسير أبداً إلى الانتحار.

أنت بالحقيقة صفوح غفور: إذا كنت تصفح عن القتلة الذين لم يسفكوا دماً، واللصوص الذين لم يسرقوا، والمنافقين الذين لم يكذبوا.

إن الذي يستطيع أن يضع إصبعه على الخط الفاصل بين الخير والشر يستطيع بالحقيقة أن يلامس هدب ثوب الله.

إذا كان قلبك بركاناً فكيف تتوقع أن تزهو الأزهار في يديك؟.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أليس غريباً أنّني كثيراً ما أحب أن يخدعني الناس ويغشوني لكي أضحك على حساب الذين يفكرون أنّني لا أعرف أنهم يخدعونني؟.

ماذا أقول في المطارد الذي يمثل دور المطارَد؟.

أعط ثوبك لمن يمسح يديه الوسختين به، لأنّه ربما يحتاج إليه، أما أنت فلا تحتاج إليه.

*

يا للأسف الشديد كيف أن الصيرفي لا يستطيع أن يكون بستانياً!

*

بربك لا تغط هفواتك الأصلية بفضائلك الاكتسابية، فأنا أتمسك بهفواتي الصغيرة فهي ملك خاص بي.

كم من مرة عزوت لنفسي جرائم لم أرتكبها قط لئلا أظهر أرفع ممن يجالسني من المجرمين.

*

إنّ براقع الحياة نفسها هي براقع لسر أعمق من الحياة.

*

تستطيع أن تدين الآخرين بحسب معرفتك لذاتك.

فهل لك أن تقول لي من هو المجرم بيننا ومن هو البريء؟.

إن البار بالحقيقة هو ذلك الذي يشعر بأنّه سبب لنصف الجرم الذي أجرمته أنت.

*

لا يكسر الشرائع البشرية إلا اثنان: المجنون والعبقري، وهما أقرب الناس إلى قلب الله.

مطاردة بعضم وهبتْ قدمي السرعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس لي أعداء يا رب، ولكن إذا كان لا بدّ من وجود عدوّ لي، فاجعل يا ربّ قوته مضارعة لقوتي، لكي لا تكون الغلبة إلا للحقّ.

ستكون على ولاء تام مع عدوك بعد موتكما.

كثيراً ما ينتحر الإنسان في الدفاع عن نفسه.

عاش في قديم الزمان رجل صلبه الناس لأنّه كان يحبّ كثيراً وكان يحبه الناس كثيراً.

ولعلك تدهش إذ اخبـرك أنني رأيته ثلاث مرات في الأمس القريب. ففي المرة الأولى رأيته يسأل الشرطي أن لا يأخذ زانية إلى السجن؛ وفي المرة الثانية رأيته يشرب الخمر مع أحد السكيرين؛ وفي المرة الثالثة رأيته يصارع رجلاً أراد أن يتخذ الكنيسة وسيلة للإعلان والتذييع.

*

إذا كان كل ما يقولونه في الخير والشر حقيقياً فإن حياتي كلها سلسلة من الجرائم.

ليست الرحمة سوى نصف العدالة.

ما ظلمني إلا الذي ظلمت أخاه.

إذا رأيتَ رجلاً يقاد إلى السجن فقل في قلبك: لعله يهرب من سجن أضيق وأظلم من السجن الذي يسير إليه.

*

وإذا رأيت سكيراً فقل في قلبك: من يدري إذا كان هذا الرجل لم يسكر لكي يتخلص مما هو شر من السكر؟.

*

كثيراً ما حملني الدفاع عن النفس إلى البغضاء، ولكن لو كنت أوفر قوة لما لجأت إلى مثل هذه الوسيلة.

ما أبلد من يرقع نظرات البغض في عينيه بخرق ابتسامة في شفتيه!.

لا يحسدني ولا يبغضني إلا الذين دوني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن لم يحسدني ولم يبغضني أحد قط، فأنا إذن لست فوق أحد.
ولا يمدحني ولا يصغرني إلا الذين فوقي.
ولكن لم يمدحني ولم يصغرني أحد قط، فأنا إذن لست فوق أحد.

*

قولك إنك لا تفهمني مديح لا أستحقه أنا وإهانة لا تستحقها أنت.

*

ما أحقرني عندما تعطيني الحياة ذهباً فأعطيك فضة ثم أحسبني سخياً!.

*

عندما تبلغ إلى قلب الحياة تجد أنك لست أرفع من المجرمين ولا أدنى من الأنبياء.

*

غريب أنك تقصر شفقتك على بطيء القدمين دون بطيء الفكر، وأعمى العينين دون أعمى القلب.

*

تقضي الحكمة على الأعرج ألا يكسر عكازه على رأس عدوه.

*

ما أعمى الذي يعطيك من جيبه ليأخذ من قلبك!.

*

الحياة موكب عظيم، ينظر إليه بطيء الخطى فيحسبه سريعاً جداً ولذلك يهرب منه، وينظر إليه سريع الخطى فيحسبه بطيئاً ويهرب منه.

*

إذا كان لا بد من وجود الخطيئة فإن فريقاً منا يرتكبونها بالتفاتهم إلى الوراء لاقتفاء خطوات آبائنا وجدودنا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقترفها الفريق الآخر بتحديقهم إلى الأمام للمبالغة في السيادة على أبنائنا.

*

الصالح الصالح هو ذلك الذي لا يفصل ذاته عن جميع الذين يحسبهم العالم أشراراً.

*

جميعنا سجناء ولكن بعضنا في سجون ذات نوافذ وبعضنا في سجون بدون نوافذ.

*

عجيب غريب أننا ندافع عن خطإنا بأكثر قوة مما ندافع عن صوابنا.

لو اعترفنا بعضنا لبعض بخطايانا لضحكنا جميعنا بعضنا على بعض لشدة فقرنا إلى الابتكار.

ولو أظهرنا جميعنا فضائلنا بعضنا لبعض لأغربنا في الضحك للسبب عينه.

*

يظل الفرد فوق الشرائع البشرية حتى يقترف إثماً ضد المجامع البشرية وبعد ذلك لا يكون فوق أحد ولا دون أحد.

*

الحكومة اتفاق بينك وبيني. وأنت وأنا في الغالب على ضلال.

*

الجريمة اسم من أسماء الحاجة أو مظهر من مظاهر المرض.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل هنالك خطأ أعظم من الشعور بخطإ الاخرين؟

*

إذا ضحك امرؤ منك تستطيع أن تشفق عليه، ولكن إذا ضحكت عليه فربما لم تستطع أن تصفح عن نفسك.

وإذا أساء امرؤ إليك فأنت تقدر أن تنسى الإساءة، ولكن إذا أسأت إليه فأنت ذاكر إساءتك أبداً.

لذلك ثق بأن هذا الشخص الثاني هو ذاتك الأكثر إحساساً ولكن في جسد غير جسدك.

*

ما أحمقك وأنت تطلب من الناس أن يطيروا بجناحيك ولكنك لا تقدر أن تعطيهم ريشة!.

*

جلس رجل مرة إلى مائدتي فأكل خبزي وشرب خمرتي وذهب ضاحكاً منّي.

ثم جاءني بعدئذ يطلب خبزاً وخمراً، فرددته خائباً فضحكت الملائكة منّي.

*

البغض جثة راقدة فمن منكم يريد أن يكون قبراً؟

*

حسب القتيل فخراً أنّه ليس بالقاتل.

*

منبر الإنسانية قلبها الصامت لا عقلها الثرثار.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحسبونني مجنوناً لأنني لا أبيع أيامي بدنانيرهم.

وأحسبهم مجانين لأنّهم يظنون أن أيامي تباع بالدنانير.

يبسطون أمامنا ثروتهم من الذهب والفضة، ونبسط أمامهم القلب والأرواح، ومع ذلك يحسبون نفوسهم المضيفين ويحسبوننا الأضياف.

أحب أن أكون الأصغر بين ذوي الأحلام، الراغبين في تحقيق أحلامهم، ولا أكون الأعظم بين من لا أحلام ولا رغبات لهم.

أدعى الناس إلى الشفقة ذلك الذي يحول أحلامه إلى الفضة والذهب.

جميعنا نتسلق المرتفعات إلى قنة رغبات قلوبنا. فإذا سرق المتسلق إلى جانبك جرابك وكيسك فسمن بالأول وازداد ثقله بالثاني، فخذه بحلمك وأشفق عليه: لأن السمن يجعل الصعود صعباً عليه، والثقل الذي أضافه إلى أحماله يطيل الطريق أمامه.

فإذا رأيته وأنت في نحافتكَ وهزالك، بطيئاً رازحاً تحت حمله، فلا تتأخر عن مساعدته، لأن ذلك يزيد في سرعتك.

*

لا تستطيع أن تحكم على رجل بأكثر مما تعرف عنه، وما أحقر معرفتك!.

*

لا أحب أن أصغي إلى غازٍ يعظ الذين فتح بلادهم.

*

الحر الحقيقي هو الذي يحمل أثقال العبد المقيد بصبر وشكر.

*

منذ ألف سنة قال لي جاري: إنّني أكره الحياة لأنه ليس فيها سوى الألم.

وقد مررت في الأمس بالمقبرة فرأيت الحياة ترقص على قبره.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام.

*

الوحدة عاصفة صماء تحطم جميع الأغصان اليابسة في شجرة حياتنا، ولكنها تزيد جذورنا الحية ثباتاً في القلب الحيّ للأرض الحيّة.

*

حدّثت مستنقعة عن البحر فحسبتني خيالياً يبالغ، وحدّثت البحر عن المستنقعة فظنّني مفترياً يهجو.

*

ما أضيق عيش من يؤثر اجتهاد النمل على إنشاد الجنادب!.

*

أسمى الفضائل في هذا العالم ربما تكون أدناها في العالم الثاني.

*

العميق والعالي ينزلان إلى الأعماق أو يصعدان إلى الأعالي ولا يتحرك في الدوائر إلا الفسيح الرحيب.

*

لولا مقاييسنا وأوزاننا المحدودة لتهيّبنا أمام الحباحب مثلما نتهيّب أمام الشموس.

*

العالم بدون خيال جزّار تعطّلت سكاكينه وموازينه.

ولكن ماذا نعمل ونحن لا نستطيع أن نكون نباتيين بأجمعنا؟

إذا غنيت للجائع سمعك بمعدته.

*

ليس الموت بأقرب إلى الشيخ منه إلى الطفل الرضيع، والحياة كالموت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذا كنت تريد أن تكون مخلصاً فكن مخلصاً بجمال، وإلا فاصْمُتْ، لأن في جوارنا رجلاً يحتضر.

*

من يدري إذا لم تكن الجنازة بين الناس عرساً بين الملائكة؟.

*

تستطيع الحقيقة المنسية أن تموت وتترك في وصيتها سبعة آلاف حقيقة لتنفق في جنازتها وبناء قبرها.

*

نحن نتكلم لنخاطب ذواتنا فقط، ولكن كثيراً ما نرفع أصواتنا أكثر مما ينبغي فيسمعنا الآخرون.

*

الواضح هو ذلك الذي لا يراهُ أحدٌ حتى تعبّر عنه بملء البساطة.

*

لو لم تكن المجرّة في أعماقي فكيف كان يمكن أن أراها أو أعرفها؟.

*

إذا لم أصر طبيباً بين الأطبّاء فلا يصدقون أنّني منجّم.

*

ليس اللؤلؤ سوى رأي البحر في الصدف.

وليس الماس سوى رأي الزمن في الفحم.

*

الشهرة شبح الهوى الواقف في النور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجذر زهرةٌ تحتقر الشهرة.

*

لا دين ولا علم بدون الجمال.

*

لم أعرف رجلاً عظيماً لم يكن في الأساس الذي وضع عليه صرح عظمته بعضُ الأشياء الصغيرة، وهذه الصغيرات بعينها هي التي حالت بين جميع العظماء وبين الخمول والجنون والانتحار.

*

إنما الرجل العظيم ذلك الذي لا يسود ولا يساد.

*

لم يعمل البشر إلا بمقتضى قول القائل: «خير الأمور الوسط» ولذلك تراهم يقتلون المجرمين والأنبياء.

*

المتساهل مريض بحبّ داء الادّعاء.

*

ربما كان عدم الاتفاق أقصر مسافة بين فكرين.

*

أنا اللهيب وأنا الهشيم اليابس وبعضي يأكل بعضي. فهلاَّ حولت وجهك عني لكي لا يعميك دخاني!.

*

جميعنا نسعى إلى قنة الجبل المقدس، أفلا تكون طريقنا إذا اعتبرنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الماضي خريطة أقصر مما إذا اتخذناه دليلاً؟.

*

لا تكون الحكمة حكمةً إذا ترفّعت عن البكاء، وتكبرت عن الضحك، وتلهّت بنفسها فلم تنشد نفس غيرها.

*

إذا اكتفيتُ بكل ما تعرفه أنت فأين أضعُ الذي لا تعرفه؟.

*

قد تعلمت الصمت من الثرثار، والتساهل من المتعصب، واللطف من الغليظ، والأغرب من كل هذا أنّني لا أعترف بجميل هؤلاء المعلمين.

*

المتعصب بالدين خطيبٌ بالغ الصمم.

*

سكوت الحسود كثير الضوضاء.

*

إذا بلغت إلى غاية ما يجب أن تعرِفَهُ، فأنت على عتبة ما يجب أن تشعر به.

*

المبالغة حقيقة لا تملك طباعها.

*

إذا كنت لا ترى إلاّ ما يظهره النور ولا تسمع إلاّ ما تعلنه الأصوات، فأنت بالحقيقة لا ترى ولا تسمع.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحقيقة لا تتجزأ.

*

لا تستطيع أن تضحك وتكون قاسياً في وقت واحد.

*

أقرب الناس إلى قلبي ملك لا مملكة له وفقير لا يعرف كيف يتسوّل.

*

الفشل في حياته خير من النجاح في ادّعائه.

*

احفر أين شئت في الأرض تجد كنزاً، ولكن عليك أن تحفر بإيمان الفلاح.

*

قال ثعلبٌ يطارده عشرون صياداً على خيولهم المطهّمة وأمام كل صياد كلبه النبيه: سيقتلونني ولا شك. ولكن ما أحمقهم وما أبلدهم! فإنني لا أعتقد أن عشرين ثعلباً تحمُقُ إلى درجة أنها تركب عشرين حماراً وتصحب معها عشرين ذئباً لتفترس رجلاً واحداً.

*

فكر الإنسان دون روحه، يخضع للشرائع التي يسنّها الإنسان.

*

إنّني سائح وملاّح في وقت واحد وفي كل صباح أكتشف قارّة جديدة في نفسي.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالت امرأة: كيف لا تكون الحرب مقدسة وقد مات فيها ابني؟.

*

قلت مرةً للحياة: أودّ لو أسمع الموت متكلّماً.
فرفعت الحياة صوتها قليلاً وقالت لي: إنك تسمعه الآن.

*

إذا فرغت من حلّ جميع أسرار الحياة تتوق إلى الموت لأنّه سرّ من أسرار الحياة.

*

الولادة والموت مظهران من أنبل مظاهر الشجاعة.

*

يا صاحبي، إنّني سأظلّ وإياك غريبين عن الحياة.
غريبين أحدنا عن الآخر، وكل عن نفسه.
إلى اليوم الذي تتكلم فيه فأصغي إليك حاسباً صوتك صوتي، وأقف أمامك كأنّني أقف أمام مرآة.

*

يقولون لي: لو عرفت نفسك لعرفت جميع الناس.

*

فأقول لهم: لن أعرف نفسي حتى أعرف جميع الناس.

*

أنت اثنان: واحد متيقظ في الظلمة والثاني غافل في النور.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناسك الحق هو ذلك الذي يهجر عالم الذرّات ويتمتّع بعالم الكليات غير المتجزئة.

*

بين العالِم والشاعر مرجٌ أخضر، فإذا اجتازه العالِم صار حكيماً، وإذا اجتازه الشاعر صار نبيّاً.

*

رأيت في مساء الأمس فلاسفة يحملون رؤوسهم في سلال ويطوفون في ساحات المدينة وهم ينادون بأعلى الصوت: الحكمة! الحكمة للبيع!.

مساكين الفلاسفة! فهم يبيعون رؤوسهم ليطعموا قلوبهم.

*

قال فيلسوف لكنّاس الشوارع: إنّني أشفق عليك لأن عملك امضنك قذر.

فأجاب كنّاس الشوارع وقال: أشكرك يا سيدي، ولكن قل لي ما هو عملك؟

فأجاب الفيلسوف متبجّحاً: إنّني أدرس أخلاق الناس وطبائعهم وأبحث في أعمالهم ومنازعهم.

فضحك كناس الشوارع وسار في عمله قائلاً للفيلسوف: يا مسكين! يا مسكين!.

*

ليس من يصغي للحق بأصغر ممن ينطق بالحق.

*

ما من رجل يستطيع أن يفصل بين الضروري وغير الضروري من الحاجات، لأن هذا العمل من ميزات الملائكة، والملائكة حكماء أذكياء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن يدري إذا لم تكن الملائكة أفكارنا الفضلى في الفضاء؟.

*

إنما الأميرُ كل الأمير ذلك الذي يجد عرشه في قلوب الدراويش.

*

الجود أن تعطي أكثر مما تستطيع، والإباء أن تأخذ أقلّ مما تحتاج إليه.

*

لست مديناً بشيء لإنسان عند التحقيق، ولكنك مدين بكل شيء لجميع الناس.

*

جميع الذين عاشوا في الماضي يعيشون معنا اليوم، فهل بيننا من لا يريد أن يكون مُضيفاً مضيافاً؟

*

كثير الرغبات طويل الحياة.

*

يقولون لي: عصفور في اليد ولا عشرة على الشجر.

أما أنا فأقول لهم: إنّ عصفوراً واحداً على الشجر خير من عشرةٍ في اليد.

*

في الوجود عنصران لا ثالث لهما، وهما الجمال والحق. الجمال في قلوب المحبين، والحق في سواعد الذين يحرثون الأرض.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمال العظيم يأسرني، ولكن الجمال الأعظم يحرّرني من أسر ذاته.

*

يشرق الجمال أكثر لمعاناً في قلب المشتاق إليه مما في عيني الذي يراه.

*

إنني أعجب بالرجل الذي يظهر لي فكره، وأُمجّد الرجل الذي يحسر القناع عن أحلامه، ولكن لماذا أنا خجول حيي أمام الذي يخدمني؟.

*

كان الموهوب في الماضي يفاخر بخدمة الملوك.
أما اليوم فإنه يدّعي خدمة المساكين.

*

تعرف الملائكة أن كثيرين من الرجال العمليين يأكلون خبزهم بعرق جبهة الخيالي الكثير الأحلام.

*

الذكاء في الغالب قناع إذا قدرت على تمزيقه رأيت إما عبقرية ثائرة أو حذاقة ماكرة.

*

الفهيم ينسب إليّ الفهم والبليد ينسبني إلى البلادة. ويلوح لي أنهما كلاهما مصيبان.

*

لا يدرك أسرار قلوبنا إلا من امتلأت قلوبهم بالأسرار.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الذي يشاركك في ملذاتك دون آلاماك سيخسر المفتاح لواحدة من سبع بوابات في الجنة.

*

أجل، إن النيرفانا[1] موجودة، وهي تقوم بقيادة خرافك إلى المراعي الخضراء، ووضع طفلك في سرير لينام، وكتابة السطر الأخير من قصيدتك.

*

نختار أفراحنا وأحزاننا قبل أن نختبرها بزمن طويل.

*

الكآبة جدار بين بستانين.

*

إذا تعاظم حزنك أو فرحك صَغُرَت الدنيا في عينيك.

*

الرغبة نصف الحياة، أما عدم الاكتراث فنصف الموت.

*

أمرّ ما في أحزان يومنا ذكرى أفراح أمسنا.

*

يقولون لي: يجب أن تختار بين ملذات هذا العالم وسلام العالم الثاني.
فأقول لهم: قد اخترت أفراح هذا العالم وسلام العالم الثاني معاً. فإنّني

---

(١) النيرفانا في اعتقاد البوذيين انقطاع الوجود الشخصي وبلوغ النفس إلى وحدة الكمال العامة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعرف في قلبي أن الشاعر الأعظم لم يكتب سوى قصيدة واحدة، وهي تامة الوزن تامة القوافي.

*

الإيمان واحةٌ مخضلّة الجوانب في صحراء القلب لا تبلغ إليها قوافل الفكر.

*

إذا بلغت إلى ملء رفعتك فأنت لا ترغب إلا في الرغبة، ولا تجوع إلا للجوع، ولا تعطش إلا للعطش الأعظم.

*

إذا بُحت بأسرارك للريح فلا تلم الريح إذا باحت بها للأشجار.

*

إن أزهار الربيع هي أحلام الشتاء تقرَّب على مائدة الملائكة عند الصباح.

*

السلاحف أكثر خبرة بالطرق من الأرانب.

*

أليس من الغريب أن المخلوقات التي بدون سلسلة فقرية تعيش في أصداف آمن من ذوات الفقرات؟.

*

أكثر الناس كلاماً أقلّهم ذكاء، وبين الخطيب والدلّال بون شاسع.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كن شكوراً لأنّك لست مرغماً على الحياة بصيت أبيك أو مال عمك.

ولكن كن شكوراً أكثر من هذا إذا لم يكن لك من يعيش بصيتك أو بثروتك.

*

إذا أخطأ المشعوذ في القبض على كرته جاءني مستغيثاً مسترحماً.

*

يمدحني الحسود وهو لا يعلم.

*

كنتَ حلماً في نوم أمك العميق زمناً طويلاً، وعندما أفاقت من نومها ولدتك.

*

إن خميرة الجنس كائنة في حنين أمّك.

*

شاق أبي وأمي ولد فولداني. وشاقني أن يكون لي أب وأُم فولدت البحر والليل.

*

بعض أبنائنا كالأعذار وبعضهم كالذنوب.

*

إذا جاء الليل وكنت مظلماً مثله، فاذهب إلى فراشك وكن مظلماً باختيارك.

وإذا جاء الصباح وأنت لا تزال مظلماً فانهض وقل للنهار بإرادتك الكاملة: إنّني ما برحت مظلماً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن من البلادة أن تقف في وجه الليل والنهار، فهما يضحكان منك لو قلت.

*

ليس الجبل المقنّع بالضباب تلّة، وليست السنديانة تحت المطر بالصفصافة الباكية.

*

إليك هذه الأحجية: إن العميق أو العالي هما أقرب أحدهما إلى الآخر من المتوسط لأحدهما.

*

عندما وقفتُ أمامك مرآة نقيّة، تأمّلتَ فيّ مليّاً فرأيتَ صورتك.
ثم قلت لي: إنّني أحبك.
ولكنك بالحقيقة أحببت ذاتك فيّ.

*

إذا تلذّذت بمحبّة قريبك زالت فضيلتك من محبتك.

*

المحبة التي لا تنبع في كل يوم، تموت في كل يوم.

*

لا تستطيع أن تمتلك الشباب ومعرفة الشباب في الوقت الواحد.

لأن الشباب تلهيه المعيشة عن المعرفة، والمعرفة يلهيها البحث عن ذاتها عن المعيشة.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد تنظر من نافذة منزلك فترى بين عابري الطريق راهبة تسير إلى يمينك ومومساً تسير إلى يسارك.

وفي سذاجتك وطهارة قلبك تقول لذاتك: ما أنبل هذه وما أقبح تلك!
ولكنك لو أغمضت عينيك وأصغيت هنيهة لسمعت صوتاً يتردد في الأثير قائلاً بلسانك: إن الواحدة تنشدني بالصلاة والثانية بالألم، وفي روح كل منهما مظلة لروحي.

*

مرة في كل مائة سنة يلتقي يسوع الناصري بيسوع النصارى في حديقة بين جبال لبنان، فيتحادثان طويلاً، وفي كل مرة ينصرف يسوع الناصري وهو يقول ليسوع النصارى: أخشى يا صاحبي أنّنا لن نتفق أبداً أبداً.

*

ليشبع الربّ المُتْخَمين!.

*

للرجل العظيم قلبان: قلب يتألم وقلب يتأمل.

*

إذا كذب الإنسان كذبة لا تؤذيك ولا تؤذي أحداً سواك فلماذا لا تقول في قلبك: إن بيت حقائقه لا يسع خيالَه ولذلك يتركه إلى فضاء أرحب؟.

*

وراء كلّ باب موصد سرّ مختوم بسبعة أختام.

*

الانتظار سنابك الزمن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماذا يهمك إذا كان الهمّ نافذة جديدة في الجدار الشرقي لبيتك؟.

*

قد تنسى الذي ضحكت معه، ولكنك لن تنسى الذي بكيت معه.

*

لا شك أن في الملح قوة مقدسة عجيبة. فهو كائن في دموعنا وفي البحر.

*

إن إلهنا في عطشه المبارك سيشربنا جميعاً: قطرة الندى والدمعة معاً.

*

ما أنت إلا ذرة من ذاتك الجبارة: فمٌ ينشد خبزاً، ويد عمياء تمسك قدحاً لفم عطشان.

*

إذا ارتفعت عن التعصّب لجنسك أو بلادك أو ذاتك ذراعاً واحدة صرت بالحقيقة مثل ربّك.

*

لو كنت في موضعك لما أنحيت باللائمة على البحر في وقت الجزْر.

*

السفينة جيدة والربان ماهر، ولكن التشويش في معدتك أنت.

*

إن ما نتوق إليه ونعجز عن الحصول عليه أحبّ إلى قلوبنا مما قد حصلنا عليه.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لو جلست على السحابة لما رأيت الحدّ الفاصل بين بلاد وبلاد ولا الحجر الفاصل بين حقل وحقل.

ولكن يا للأسف إنك لا تستطيع أن تجلس على السحابة!.

*

من سبعة قرون طارت سبع حمامات بيضاء من وادٍ عميق وحلّقت قاصدة قنة جبل عالٍ تغطيه الثلوج. فقال أحد الرجال السبعة الذين كانوا يراقبون الطيران: إنّني أرى نقطة سوداء على جناح الحمامة السابعة.

واليوم يتحدث الناس في ذلك الوادي بسبع حمامات سوداء طارت في قديم الزمان إلى قنة الجبل المغطاة بالثلوج.

*

جمعت كل أحزاني في الخريف ودفنتها في بستاني.

وعندما رجع نيسان وجاء الصيف ليتزوج الأرض، نبتت في بستاني أزهارٌ بالغة الجمال تختلف عن جميع الأزهار الأخرى.

فجاء جيراني لكي ينظروا أزهار بستاني، وقالوا لي جميعهم: إذا جاء الخريف وجاء معه وقت البذار أفلا تعطينا من بذار هذه الأزهار لكي نزرعها في بساتيننا؟.

*

التعاسة في أن أمدّ يدي فارغة للناس فلا يضع فيها أحدٌ شيئاً، أمّا القنوط ففي أن أمدّها ملآنة فلا يأخذ الناس منها شيئاً.

*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أتوق إلى الأبدية لأنّني سأجتمع فيها بقصائدي غير المنظومة، وصوري غير المرسومة.

*

الفنّ خطوة تخطوها الطبيعة نحو الأبدية.

*

عمل الفن ضباب مسكوب في صورة.

*

إن الأيدي التي تصنع أكاليل الشوك هي أفضل من الأيدي الكسولة.

*

إن أقدس دموعنا لمّا تعرف الطريق إلى مآقينا.

*

كل إنسان هو ابن لكلّ ملك ولكلّ عبد عاش قبله في العالم.

*

لو أنّ جدّ يسوع عرف ما كان مستتراً فيه أفما كان يقف وقفة الخشية والخشوع أمام نفسه؟.

*

هل كانت محبّة أُمّ يهوذا لابنها أقلّ من محبة مريم ليسوع؟.

*

لأخينا يسوع ثلاث عجائب لم تُكتَب بعد في الكتاب: الأولى أنّه كان إنساناً مثلي ومثلك. والثانية أنّه كان ذا كياسة وظرف. والثالثة معرفته أنّه غالب مع أنه غُلب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيها المصلوب، إنّك مصلوب على قلبي، والمسامير التي ثقبت يديك تخترق جدران قلبي.

وغداً عندما يمرّ غريب بهذه الجلجلة لن يظنّ أن دم اثنين نازف هنا، بل يظنّه دمَ واحدٍ فقط.

*

لعلك سمعت بالجبل المبارك، فهو أعلى جبل في العالم.

فلو بلغت قمّته لم يكن لك سوى أمنية واحدة وهي أن تهبط نازلاً وتقيم مع النازلين في أعمق وادٍ.

ولذلك دُعي الجبل المبارك.

*

كلّ فكر حبسته عن الظهور بالكلام يجب أن أُطلقه بالأعمال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يسوع ابن الإنسان

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعقوب بن زبدى

ممالك العالم

في يوم من أيام الربيع وقف يسوع في ساحة المدينة في أورشليم وشرع يخاطب الجموع عن ملكوت السماء.

فاتهم الكتبة والفريسيين بإقامتهم فخاخاً وحفرهم حفراً في طريق الراغبين في الملكوت، موبخاً وزاجراً.

وكان بين الجموع رجال يدافعون عن الفريسيين والكتبة، ففكروا في أن يقبضوا على يسوع وعلينا جميعاً.

ولكنه تجنبهم وأعرض عنهم سائراً إلى البوابة الشمالية للمدينة.

وهناك نظر إلينا وقال: لم تأتِ ساعتي بعد، ان هنالك كثيراً سأقوله لكم وكثيراً سأفعله بينكم قبل أن أسلم نفسي للعالم.

ثم قال وفي صوته رنة الفرح والضحك: هلم بنا إلى الشمال لنلاقي الربيع، تعالوا معي إلى التلال، لأن الشتاء قد ولّى وثلوج لبنان تنحدر إلى الأودية لتترنّم مع الجداول.

قد قضت الحقول والكروم على النوم، واستيقظت لتحيي الشمس بتينها الأخضر وعنبها الرقيق.

وكان يمشي أمامنا ونحن نتبعه كل ذلك اليوم والذي تلاه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي مساء اليوم الثالث وصلنا إلى قنة جبل حرمون، وهنالك وقف ينظر إلى مدن السهول.

فأشرق وجهه كأنّه الذهب المحترق، وبسط ذراعيه وقال لنا: انظروا إلى الأرض في ثوبها السندسي وتأملوا كيف طرزت السواقي أهدابه بالفضّة اللامعة.

حقاً إن الأرض جميلة، وكلّ ما عليها جميل.

ولكن وراء كل ما تنظرون ملكوت سأحكمه وأسود فيه، فإذا شئتم ورغبتم من قلوبكم فأنتم أيضاً ستذهبون إليه وتحكمون معي.

إن وجهي ووجوهكم لن تتقنّع فيه، ولن تحمل يدنا سيفاً ولا صولجاناً، وسيحبنا رعايانا وسيعيشون بسلام من غير أن يعرفوا خوفاً منّا.

هكذا تكلم يسوع، أما أنا فإنّني كنت أعمى عن جميع ممالك الأرض وكل المدن ذات الأسوار والقلاع، ولم تكن في قلبي سوى رغبة واحدة: أن أتبع المعلم إلى ملكوته.

وفي تلك اللحظة تقدم يهوذا الاسخريوطي ودنا من يسوع وقال له: تأمل، إن ممالك العالم واسعة، ومدن داود وسليمان ستغلب الرومانيين. فإذا شئت أن تكون ملك اليهود فإنّنا نقف سيوفنا ورماحنا لتأييدك وفوزك على الغرباء.

ولما سمع يسوع هذا التفت إلى يهوذا وأمائر الغضب تملأ محياه، وخاطبه بصوت راعب كرعد السماء قائلاً له: تخلف عني يا شيطان! وهل يخطر لك أنّني جئت في مواكب السنين لأحكم ثلة من النمل يوماً واحداً؟

إن عرشي يفوق بصيرتك. وهل يمكن أن الذي يحوط الأرض بجناحيه ينشد ملجأ في عش مهجور منسي؟

أم هل يتشرف الحي ويرتفع بواسطة لابسي الأكفان؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

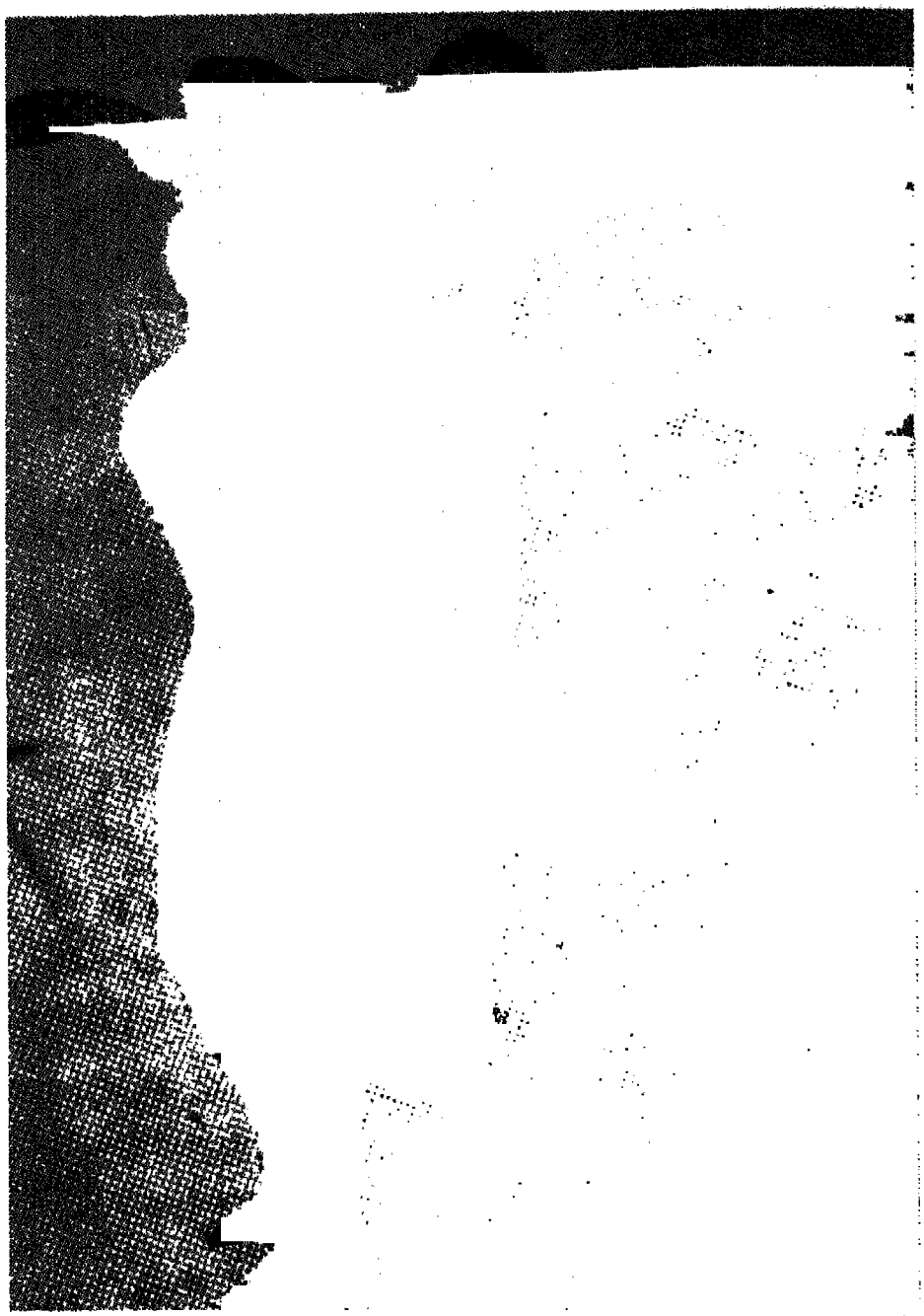

«المصلوب»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنّ مملكتي ليست من هذه الأرض، ومجلسي لم يبنَ على جماجم أسلافكم.

فإذا كنتم تنشدون مملكة غير مملكة الروح فالأجدر بكم أن تتركوني ههنا، وتنحدروا إلى مغاور أمواتكم حيث يعقد ذوو الرؤوس المتوجة منذ القديم مجالسهم في قبورهم ليعطوا مجداً لعظام جدودكم وآبائكم.

كيف تجرؤ أن تجربني بتاج من نفاية المادة في حين أن جبهتي تنشد إمّا الثريا وإما أشواككم؟

إلا أنّني لولا حلم حلمهُ جنس منسي لما كنت آذن لشمسكم أن تشرق على صبري ولا لقمركم أن يبسط ظلي في طريقكم.

ولولا رغبة نقية اختلجت في قلب أم طاهرة لكنت جردت نفسي من أقمطتي وهربت راجعاً إلى الفضاء.

ولولا الكآبة التي في أعماقكم جميعاً لما كنت أقمتُ هنا للبكاء والنواح.

فمن أنت وما شأنك يا يهوذا الاسخريوطي؟ ولماذا تجربني؟

هل وزنتني في الميزان فوجدتني جديراً بأن أقود جيشاً من الأقزام، وأدير مراكب من لا شكل له ضد عدو لا يجتمع إلا في بغضكم ولا يهجم إلا في مخاوفكم وأوهامكم؟

كثير هو الدود المجتمع حول قدمي، ولكنني لن أصليه ضرباً. قد مللت الهزل والمجون وسئمت نفسي الشفقة على الدبابات التي تحسبني جباناً لأنّني لا أتخطر بين أسوارها وقلاعها الحصينة.

إن من دواعي الشفقة أن أكون محتاجاً إلى الرحمة حتى النهاية. وكم أودّ لو كنت قادراً على أن أدير خطواتي إلى عالم أكبر من هذا العالم حيث يعيش رجال أعظم من رجاله، ولكن كيف أفعل ذلك؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن كاهنكم وامبراطوركم يريدان دمي، وسينالان ضالتهما قبل سفري إلى ذلك العالم. إنّني لن أغير سير الشريعة ولن أقيّد الجهالة.

دع الجهل يستثمر ذاته حتى يملّ ذريته.

دع العميان يقودون العميان إلى الحفرة.

ودع الموتى يدفنون الموتى حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة.

إن مملكتي ليست من هذه الأرض. مملكتي ستكون حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة منكم بمحبة، وباحترام لجمال الحياة، وبغبطةٍ وبهجة لتذكاري.

ثم التفت إلى يهوذا فجأة وقال: تخلّف عني أيها الرجل، إن ممالككم لن تكون في مملكتي.

* * *

وكان الشفق فنظر إلينا وقال: فلننزل من هنا، لأن الليل يدنو منا. فلنسر في النور ما دام لنا النور.

ثم انحدر من التلال ونحن نتبعه. وكان يهوذا يتبعنا من بعيد.

وعندما وصلنا إلى السهول خيم الظلام.

فقال له توما بن ثيوفانس: يا معلم قد دنا الظلام ونحن لا نرى الطريق، فإذا شئت سر بنا إلى أنوار تلك القرية لعلنا نجد طعاماً ومأوى.

أما يسوع فأجاب توما قائلاً: قد قدتكم إلى الأعالي عندما كنتم جياعاً، وها قد أنزلتكم إلى السهول وقد تضاعف جوعكم، ولكنني لا أقدر أن أقيم معكم في هذه الليلة، لأنّني أودّ أن أكون وحدي.

فتقدم سمعان بطرس وقال: يا معلم، لا تتركنا نمشي وحدنا في الظلام، بل ائذن لنا أن نقيم معك في هذه الطريق الضيقة، فالليل وأشباحه لن تطيل إقامتها معنا، لأن الصباح سيجدنا قريباً إذا كنت تتعطف وتظلّ معنا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأجاب يسوع وقال: في هذه الليلة ستكون للثعالب أوجارها ولطيور السماء أعشاشها، ولكن ابن الإنسان ليس له على الأرض موضع يسند إليه رأسه. وأنا بالحقيقة أريد الآن أن أكون وحدي، فإذا تقتم إليّ فإنّكم ستجدونني ثانية على البحيرة حيث وجدتكم.

* * *

فانصرفنا عنه وقلوبنا تتمزّق ألماً لأننا لم نشأ أن نفارقه بطوعنا.

وكنّا بين الهنيهة والأخرى نقف ونتلفت إلى الوراء لنراه في عظمة وحدته سائراً نحو الغرب.

أما الرجل الوحيد فينا الذي لم يلتفت إلى الوراء ليرى المعلم في كمال وحدته فهو يهوذا الاسخريوطي.

ومن تلك الساعة ساء خلق يهوذا وكثر اضطرابه وأظلمت عيناه بسحب كثيفة من الغدر والشرّ.

حنة أم مريم

ميلاد يسوع

وُلد يسوع حفيدي هنا في الناصرة في شهر كانون الأول. وفي الليلة التي ولد فيها يسوع زارنا رجال من المشرق، فقد كانوا أعجاماً جاؤوا إلى اسدريلون مع قوافل الميديين في طريقهم إلى مصر، وإذ لم يجدوا مكاناً في الفندق طلبوا ملجأ في بيتنا.

وقد رحبت بهم وقلت لهم: إن ابنتي ولدت صبياً في هذه الليلة، وأنتم ولا شكّ تغضون الطرف عن قصوري إذا لم أقم بواجب الضيافة كما يليق بكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فشكروني على قبولهم في منزلي. وبعد العشاء قالوا لي: نود أن نرى الطفل الجديد.

وكان ابن مريم جميل الصورة، وهي أيضاً كانت جميلة.

وعندما رأى الأعجام مريم وطفلها أخرجوا ذهباً وفضة من أكياسهم، ومرّاً ولباناً، وطرحوها كلها عند قدمي الطفل.

ثم سجدوا وصلوا بلغة غريبة لم نفهمها.

وعندما ذهبت بهم إلى غرفة النوم التي أعددتها لهم دخلوا بملء الاحترام مما رأوا وشاهدوا.

وعند الصباح تركونا وساروا في طريقهم إلى مصر.

ولكن قبل انصرافهم قالوا لي: إن هذا الطفل وإن كان ابن يوم واحد فإنّنا قد رأينا نور إلهنا في عينيه وابتسامة إلهنا على شفتيه.

فنرجو منكم أن تحرسوه بعنايتكم ليحرسكم بعنايته.

وإذ قالوا هذا ركبوا جمالهم ولم نرهم بعد ذلك.

أما مريم فلم يكن فرحها ببكرها ليضاهي شدة دهشتها وذهولها أمامه.

فكانت تحدّق إليه طويلاً ثم تدير وجهها إلى النافذة وتتأمل السماء البعيدة منذهلة كأنها ترى رؤى سماوية.

وكان بين قلبها وقلبي أودية بعيدة العمق.

وكان الصبي ينمو بالجسد والروح، وكان يختلف كل الاختلاف عن جميع أترابه، فكان محبّاً للوحدة، يصعب الحكم عليه، ولم أقدر أن أضع يدي عليه قطّ.

بيد أنّه كان محبوباً من جميع أهل الناصرة، وفي أعماق قلبي عرفت السبب في ذلك.

وكثيراً ما كان يأخذ طعامنا ويعطيه لعابري السبيل. وكلما أعطيته شيئاً من الحلوى كان يعطيه للأولاد رفقائه قبل أن يذوقه بفمه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«مريم أم يسوع»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يتسلق أشجار البستان ويقطف أثمارها ليحملها إلى غيره ممن لا أثمار في بساتينهم.

وكثيراً ما رأيته بعيني وهو يتسابق مع الأولاد، وإذ يرى أنّه أسرع خطى منهم، يتباطأ في سيره حتى يسبقوه إلى المحجة قبل أن يصل هو إليها.

وكان في بعض الليالي عندما أقوده إلى فراشه يقول لي: أخبري أمّي وغيرها أن جسدي فقط ينام، ولكن فكري سيظلّ رفيقاً لهم حتى يأتي فكرهم إلى صباحي.

وغير هذا كثير من الآيات العجيبة التي كان يقولها لي في صبوته، ولكن ضعف ذاكرتي في شيخوختي يحول دون تذكرها.

واليوم يقولون لي إنني لن أراه فيما بعد، ولكن كيف أستطيع أن أصدق ما يقولون؟

إنني ما زلت أسمع ضحكه، وصوت وقع قدميه على أرض الدار لا يفارق أذني، وكلما قبلت وجنة ابنتي أشعر بعطر قبلاته يفوح في قلبي، وأحسّ بجسده الجميل يتموج بين ذراعيّ.

ولكن، أليس من الغرابة العجيبة أن ابنتي لا تتكلم عن ابنها البكر أمامي أبداً؟

وكثيراً ما يخطر لي أن شوقي إليه أعظم من شوقها، لأنّها تقف شاخصة أمام نور النهار كأنها تمثال من النحاس الصامت في حين أن قلبي يذوب في صدري ويجري منسكباً كالجدول، ومن يدري، فلعلها تعلم ما لا أعلم. ويا ليتها تحدّثني بما تعرف من الأسرار الغامضة عليّ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عساف الملقب بخطيب صور

خطاب يسوع

ماذا أقول عن خطابه؟ لا شكّ أن قوة خفية في شخصيّته كانت تسلح كلماته بسحر عجيب فتأخذ بمجامع قلوب سامعيه، لأنّه كان جميل الصورة بهيّ المحيّا.

وكان الرجال والنساء يحدقون إلى صورته الكاملة أكثر مما يصغون إلى مباحثه. ولكنه كثيراً ما كان يتكلم بقوة روح عجيبة، وتلك الروح كان لها السلطان الكامل على كل من سمعه.

قد سمعت في حداثتي خطباء روما وأثينا والاسكندرية، ولكن الناصري النذير كان يختلف كل الاختلاف عن جميعهم.

حصر أولئك همهم بترتيب الكلام بصورة تسحر الآذان، ولكنك إذ تسمع الناصري تشعر بأن قلبك يفارقك في الحال ويسير هائماً في أصقاع لم يزرها أحد بعد.

فهو يقص عليك قصة أو يخاطبك بمثل، ولكن سورية لم تسمع بمثلٍ قصصهِ وأمثاله في كل تاريخها، لأنّه كان يحوك أمثاله وقصصه من خيوطَ الفصول كما يحوك الزمان نسيجه من خيوط السنين والأجيال.

وإليك مثالاً من طريقته في بدء قصصه: خرج الزارع ليزرع زرعه.

أو كان لرجل غني كروم عديدة.

أو راعٍ عدَّ خرافه عند المساء فوجد خروفاً ناقصاً...

ومثل هذه الكلمات تحمل سامعيه إلى ذواتهم الساذجة وإلى أيامهم القديمة الهادئة.

كلنا عند التحقيق زارع. وجميعنا نعشق الكرمة. وفي مراعي ذاكرتنا يوجد راع وقطيع وخروف ضال.

وهنالك أيضاً محراث ومعصرة وبيدر.